الديوان – المنتدي السياسى المصري

"الأفق الأندلسي"

سلسلة مقالات للمفكر الدكتور: يوسف زيدان

تجميع : محمد منصور – عن جريدة المصري اليوم

2011

عن الديوان – المنتدي السياسى المصري

الديوان السياسي المصري

صفحة الكترونية على موقع التواصل الاجتماعي فيس بوك

تهدف الى نشر التوعية السياسية و ربط الأفراد بالواقع و متغيراته

و التغطية الإخبارية لبعض الأحداث السياسية من خلال كتابات بعض اصحاب الفكر

المستنير من المفكرين المصريين و المبدعين تحت سماء الوطن و بعض الكتب الإلكترونية

التى نرى أن لها تأثير حيوي و شديد الإيجابية فى التوعية السياسية ، و كل أطروحات الصفحة

أطروحات ليست دورية تعتمد على المجهود الشخصي فى التجميع و النقل و النشر

بلا أي مقابل مادي ، فقط من اجل نشر الوعي فى المجتمع المصري.

الرؤية السياسية للمسئولين عن الصفحة ، هى تعبير عن الرأي الشخصى فقط لأصحابها

و لا تعتبر توجيها لإتجاه معين أو دعوة لتبنى رؤية معينة ، فهي أراء مطروحة للنقاش

و النقد بحرية تامة مدعومه بإحترام الرأي و الرأي الأخر .

تتقدم الصفحة و المتطوعين فيها بكل الشكر لأصحاب الفكر و مبدعى مصر المستنيرين

الذين لولا أبدعاتهم لوجدنا من المشقة ما يجعل مهمتنا شبة مستحيلة.



من هو المفكر المصري :د يوسف زيدان ؟

مصري متخصص في التراث العربي المخطوط وعلومه. له عديد من المؤلفات والأبحاث العلمية في الفكر الإسلامي والتصوف وتاريخ الطب العربي. وله إسهام أدبي يتمثل في أعمال روائية منشورة، كما أن له مقالات دورية وغير دورية في عدد من الصحف المصرية والعربية. عمل مستشاراً لعدد من المنظمات مثل مكتبة الإسكندرية

الاسم بالكامـــــل : يوسف محمد أحمد طه زيدان

تاريخ الميـــــلاد : 1958/6/30

*ليسانس آداب / قسم فلسفة ، جامعة الإسكندرية 1980.

*ماجستير فى الفلسفة الإسلامية ، جامعة الإسكندرية عام 1985(عنوان الرسالة: الفكر الصوفى عند عبد الكريم الجيلى، دراسة وتحقيق لقصيدة النادرات العينية للجيلى مع شرح النابلسى) بتقدير: ممتاز.

*دكتوراة فى الفلسفة الإسلامية ، جامعة الإسكندرية عام 1989 (عنوان الرسالة: الطريقة القادرية فكراً ومنهجاً وسلوكاً، دراسة وتحقيق لديوان عبد القادر الجيلانى) بتقدير: مرتبة الشرف الأولى.

*درجة الأستاذية فى الفلسفة وتاريخ العلوم (ديسمبر 1999) بإجماع لجنة الترقيات بالمجلس الأعلى للجامعات

من مؤلفاته وتحقيقاته في التصوف

- **شعراء الصوفية المجهولون**
- **المتواليات: دراسات في التصوف**
- **الطريق الصوفي وفروع القادرية بمصر**
- **فوائح الجمال وفواتح الجلال**
- **المقدمة في التصوف، للسُّلَمى**
- **ديوان عبد القادر الجيلانى**
- **ديوان عفيف الدين التلمسانى (الجزء الأول)**
- **النادرات العينية، مع شرح النَّابُلسى**

من مؤلفاتة فى الطب

- **شرح فصول أبقراط**
- **رسالة الأعضاء، لابن النفيس**
- **المختار من الأغذية، لابن النفيس**
- **علاء الدين (ابن النفيس) القرشى : إعادة اكتشاف**
- **مقالة في النقرس لأبي بكر الرازي**
- **الشامل في الصناعة الطبية (30 مجلداً)**

من مؤلفاتة الأدبية

- **عزازيل (روايه)**
- **ملتقي البحرين**
- **النبطي**
- **ظل الأفعي**

الأُفق الأندلسى (٧/١)

تمهيداتٌ ضرورية

زرتُ إسبانيا مرتين، الأولى بدعوة من الملكة« صوفيا »لأشارك معها فى افتتاح الجناح الكبير الذى أُقيم فى المكتبة الوطنية الإسبانية بمدريد، احتفالاً بافتتاح مكتبة الإسكندرية وعودتها للحياة بعد قرونٍ طوال من اندثارها وتدميرها على يد المتعصِّبين دينياً، فى بداية القرن الخامس الميلادى، وللعلم، فإن» الملكة صوفيا «من أهمِّ الشخصيات العالمية، التى تحمَّسَتْ لبعث مكتبة الإسكندرية، لأنها من عُشَّاق الإسكندرية الساحرة !وهى من ناحية، ابنةُ آخر ملوك اليونان (وللإسكندرية وجهٌ يونانى) ومن ناحية أخرى، نشأت فى هذه المدينة وتخرَّجتْ فى مدارسها..

وفى هذه الزيارة الأولى، دُعِيتُ إلى زيارة الدَّير الملكى (الإسكوريال) الذى يحتفظ بثلاثة آلاف مخطوطة عربية نادرة، فكنتُ من القلائل، الذين دخلوا دهاليز الدير وخزائن المخطوطات المحفوظة هناك، كما دُعِيتُ فى تلك الزيارة، إلى جولةٍ خاصة فى المكتبة القومية الإسبانية بمدريد، فكنتُ من المحظوظين الذين أخرجَ لهم مديرُ المكتبة من خزانةٍ عتيقة قصةَ «الأَلِف» بخطِّ مؤلِّفها الشهير: خورخى لويس بورخيس، وعرفتُ منه يومها أن النسخة الكاملة من مخطوطات دير الإسكوريال، التى أهدتها الملكة صوفيا لمكتبة الإسكندرية، هى النسخة الوحيدة فى العالم. حتى إن المكتبة القومية الإسبانية، ذاتها، ليس لديها نسخةٌ مما لدينا اليوم بالإسكندرية.

وكانت زيارتى الأخرى لإسبانيا بدعوةٍ من عمدة مقاطعة «أليخانتى» الساحرة، لأشارك فى افتتاح الميدان، الذى أقاموا فيه النصب التذكارى (التمثال الكبير) للعالم العربى والصيدلانى الشهير «ابن البيطار» الذى ترك لتاريخ العلم الإنسانى، مجموعة أعمال فى الطب والصيدلة، أشهرها كتابه: الجامع لمفردات الأغذية والأدوية.

وخلال الزيارتين، بدأتُ أعيد النظر فى (تصوُّرنا) نحن العرب والمسلمين، للمرحلة الأندلسية من تاريخ إسبانيا، ففى المرتين رأيتُ صورةً صادقةً من اعتزاز الإسبان المعاصرين بالزمان العربى الإسلامى فى (الأندلس)، وشاهدتُ كثيراً من العمائر والآثار الباقية إلى اليوم من ذاك الزمان، وعرفتُ أشياءَ كثيرة، خاصةً أن الزيارة الأولى صحبنى فيها الدكتور «محمد أبوالعطا» الذى كان آنذاك مستشاراً ثقافياً لمصر فى إسبانيا، وهو خبير باللغة الإسبانية، ومترجم بارع لنصوصها إلى اللغة العربية..

وفى الزيارة الأخرى، صحبنى الدكتور «محمود على مكى» الذى يعدُّ اليوم، أهمَّ متخصِّص فى التاريخ الأندلسى على مستوى العالم، فكان الصاحبان فى المرَّتين، خيرَ مَنْ ينطبق عليهم قولهم: الرفيق قبل الطريق.

ولاحظتُ فى الزيارتين تشابهاً شديداً بين العرب والإسبان، خاصةً فى الجنوب القريب من المغرب، حتى إنهم يقولون هناك: لو حَكَّ الإسبانىُّ المعاصر جلده، لظهر تحته الجلد العربى !فإذا لم يتكلَّمْ أحدهُما لغتَه الخاصَّة، فإنك لا تستطيع تمييز الشخص العربىِّ من الإسبانى. والتشابُه بينهما لا يقتصر على تلك الملامح الشرقيَّة لكليهما، ولا يتوقَّف عند صيحة (الله/أُلّله) التى يطلقها كلٌّ منهما إذا اشتدَّ انفعالُه، حيث يتنهَّد العربى المعاصر قائلاً (الله) عند مشاهدة لوحةٍ فنيَّة أو منظر جميل، والإسبانُ المعاصرون يتصايحون (أوليه) عند كلِّ حركة لافتة فى حلبات مصارعة الثيران، بعد تحريف طفيف للكلمة العربية..

لكنَّ الأمرَ لا يقفُ عند هذه التشابهات الظاهريَّة، فالصلة بين العرب والإسبان تتعدَّى ذلك إلى تشابه أعمق، فى: الشخصيَّةِ العامة، الروح الباطنة، التكوين الثقافى، التراث المشترك. وغير ذلك من أوجه الشبه الذى ترسَّخ عبر قرون طوال، فلم تستطع القرونُ الخمسة الأخيرة (قرون العُزْلة) أن تفصل العرب عن الإسبان، وأن تمحو من بنية الإسبانى المعاصر، هذه الجيناتِ الوراثيَّة والثقافيَّة.

ومع أن إسبانيا تقع جغرافيا فى نطاق القارة الأوروبيَّة، إلا أنها مع ذلك، تبدو كما لو كانت امتداداً طبيعياً لبلاد المغرب العربى، التى لا يفصلها عنها إلا (مضيقُ) جبل طارق.. أو بالعكس، تبدو بلاد المغرب كامتدادٍ للأرض الإسبانيَّة التى فصلتها عنها، فى الأزمنة السحيقة، الزلازلُ التى سمحت لمياه المحيط بالدخول إلى المنطقة المسمَّاة اليوم: البحر المتوسط (أى المتوسط بين جماعات وشعوب العالم القديم).

وقد لعب «التاريخُ» كما لعبت «الجغرافيا» دوراً مهماً فى التقريب بين العرب والإسبان، وهو الأمر الذى نجحت (السياسة) فى القضاء عليه، وهى على كلِّ حال، مسألةٌ كثيرة الوقوع، فلطالما نجحت السياسةُ فى فصم المتَّصل (الجغرافى/التاريخى) بين البلاد والعباد.

وللعرب والإسبان، أو بالأحرى: للعرب الإسبان (الأندلسيين) قصةٌ إنسانيَّةٌ مجيدة، استمرت زمناً طويلاً فى نطاق الثقافة البحر أوسطيَّة، وأثَّرَت فى تاريخ الحضارة الإنسانيَّة أثراً ملموساً..

وهى أيضاً قصةٌ مليئة بالمزعجات والمبهجات! فقد دخل العربُ المسلمون إلى إسبانيا سابحين فى بحار من الدماء، وخرجوا منها يخوضون فى أنهارٍ من الدَّم.

وما بين بحار الدم وأنهاره، عاشت إسبانيا زمناً أندلسيّاً بديعاً، لا تزال أطيافُه تلوحُ فى خيال المعاصرين، كما يلوح باقى الوشم فى ظاهر اليد.

وحين فكَّرتُ فى كتابة هذه «السباعية» تماوجتْ فى ذاتى ذكرياتُ الزيارتين السابقتين، وتجلَّت على مرآة باطنى وقائعُ كثيرة (تاريخية) فعاودتُ النظر فى موسوعة الدكتور «محمد عبدالله عنان» ذات الثمانية أجزاء، وعنوانها: دولة الإسلام فى الأندلس..

وحين شرعتُ فى الكتابة، تردَّدَتْ فى نفسى أصداءُ النواح المعتاد فى ثقافتنا المعاصرة، والنبرة المتباكية على ضياع (زمان الوصل بالأندلس)

وسخرية محمود درويش من الأمر كله حين قال فى أنشودته البديعة

"مديح الظل العالى"

ما نصُّه:

وأنا التوازنُ بين ما يجبُ

كُنا هناك ومن هنا،

ستسافر العربُ

لعقيدة أخرى، وتغتربُ

قَصَبٌ هيَاكلنا، وعُروشُنا قَصَبُ

فى كل مئذنةٍ حاوٍ ومغتصبُ

يدعو لأندلس

إن حُوصرت حلبُ.

وحين أُحبك، أحتاجُ تشكيل الخرائط والخطط

أحتاجُ ما يجبُ

يجبُ الذى يجبُ:

أدعو لأندلسٍ إن حُوصرت حلبُ

يرتبط دخول العرب المسلمين إلى شبه جزيرة أيبيريا (إسبانيا، البرتغال) بحكاية خرافية لا تخلو من الطرافة، وإن كانت تفتقر إلى المصداقية، وهى الحكاية المشهورة التى تقول إن» طارق بن زياد» عبر من المغرب إلى إسبانيا بجيشٍ إسلامىٍّ قوامه سبعة آلاف مقاتل، سنة ٩٣ هجرية (=

٧١١ ميلادية) وقد أحرق السفن التى عبر بها المضيق الذى سُمِّى باسمه لاحقاً، ثم قال لجنوده: «أين المفرُّ، العدوُّ من أمامكم والبحر من خلفكم«..

وهى الحكاية الأسطورية اللطيفة التى يهواها معاصرونا، ولا يكفُّون عن ترديدها، مع أننا سنرى فى هذه السُّباعية، أنها محض حكايةٍ خرافيةٍ لا تصلح إلا لتسلية الأطفال.

وقبل الدخول إلى (الأفق الأندلسى) على أجنحة التأريخ الحقيقى للوقائع، والفهم العقلانى العميق لها، دعونا نتوقف قليلاً، أولاً، عند معانى الكلمات المشهورة المرتبطة بهذا الموضوع، مثل :أندلس، إسبانيا، قوط، بربر، غزو، فتح.

أما كلمة» الأندلس «التى أطلقها العربُ على شبة جزيرة أيبيريا، فإن هناك تفسيرات عديدة لها، بعضها خيالىٌّ مضحكٌ، مثل قول بعض المؤرِّخين العرب إنها سميت بذلك، نسبةً إلى رجل يسمى (أندلوش) كان يسكنها فى الزمن القديم، أو نسبةً إلى أحد أحفاد «نوح» هو: الأندلس بن يافث بن نوح، والأرجح، أن الكلمة العربية(أندلس)مأخوذة من اللفظ الدال على البلاد آنذاك، وهو «فاندالوسيا» أى بلاد: الوندال، وهو اسم القبائل التى كانت تعيش هناك، قبل مجىء العرب المسلمين.

وأما كلمة» إسبانيا «فقيل إنها نسبةً إلى ملك اسمه (أشَبان) وقال بعض المؤرخين :بل كان اسمه» أصبهان «فوقع فيه التحريف!

وليس عندى قولٌ راجح فى سبب هذه التسمية، ولكن الأقرب مأخذاً هو الأصل الفينيقى للتسمية التى تعنى حرفياً فى اللغة الفينيقية (جزيرة الأرانب)، لأن المكان كان مليئاً بها أيام اتخذها الفينيقيون مستعمرةً..

أما تاريخ وتسمية» القوط «فأمران يعودان إلى زمن مبكر، حيث وقعت حروب بين الرومان وتلك القبائل التى عاشت فى جزيرة أيبيريا، واستطاعت فى بداية القرن الخامس الميلادى أن تقتحم أسوار (روما) المنيعة، لكنها ما لبثت أن عادت إلى موطنها الأصلى، وظلت تحكمها حتى جاء إليها العرب المسلمون، بدعوةٍ من أحد ملوك القوط، حسبما سنرى لاحقاً..

والبربر هو اسم سكان شمال أفريقيا، خاصة المغرب، عند وصول العرب المسلمين إلى هناك، وكانت أهم قبائلهم هى قبيلة: زناتة..والغزو هو الاقتحام العسكرى ..والفتحُ استقرار الغازى فى البلاد، وسكناه فيها جيلاً بعد جيل.

كان الغزو (الفتح) العربى الإسلامى أفريقيا، امتداداً لفتح (غزو) مصر، فبعدما استقرت الأمور المصرية بيد عمرو بن العاص، خرج من الإسكندرية غرباً، بجيش قليل العدد والعُدَّة، ليفتح المدن الخمس الغربية (ليبيا) فغزاها، لكنه لم يفتحها ويستقر فيها، وبعد خمس سنوات خرج أمير مصر

«عبدالله بن أبى سرح» إلى إفريقية (تونس) فاتحاً، على رأس جيش قوامه أربعون ألف محارب..

وهنا لا بد لنا من وقفة أمام دلالة هذا العدد، مقارنةً بعدد الجيش الذى خرج مع عمرو بن العاص لفتح مصر، وهو ثلاثة آلاف وخمسمائة (وقيل، بل أربعة آلاف)ويأتى السؤالُ :كيف يدخل المسلمون صحراء أفريقيا الخالية نسبياً، بالمقارنة مع مصر، بهذا الجيش الجرَّار. بينما كان الجيش الإسلامى الذى خرج إلى مصر غازياً لا يزيد عدده، على عشرة بالمائة من مجموع الجيش الذاهب لغزو الصحراء الخالية.

علماً بأن جند الروم، كانوا يتحصَّنون بقلاع مصر والإسكندرية، وكان عددهم بحسب التقديرات المختلفة، يتراوح ما بين الأربعين ألفاً والمائة ألف مقاتل!

إذن، من المنطقىِّ فى زمن الفتوح، أن يخرج المسلمون إلى ساحل أفريقيا بجيش قوامه أربعون ألفاً، ومن المنطقىِّ أن يحاصر المسلمون بلدةَ دمشق بأربعة جيوش كاملة، ومن المنطقىِّ أن يفتح المسلمون العراق بعد حروبٍ طاحنةٍ قُتل فيها من الجانبين الألوف..

ومن غير المنطقىِّ، أن يشرع »عمرو بن العاص« فى فتح مصر، بهذا الجيش (القليل) الذى جاء معه، اللهم إلا إذا نظرنا إلى الأمر من ناحيةٍ أخرى، وفهمناه فى ضوء الرؤى التى طرحناها فى السُّباعية السابقة..

الأُفق الأندلسى (٧/٢)..

اختلافُ التسمية وتسمية المخالفين

عندما علَّم اللهُ آدم (الأسماءَ كلَّها)، حسبما جاء فى القرآن الكريم، من دون توضيح طبيعة «اللغة» التى جاء منها هذه الأسماء .فقد كان ذلك (حسبما أعتقدُ) نوعاً من الانتقال بالأشياء «المعلومة» من حالة الوجود العام، أو انعدام الوعى بها، إلى حالة الإدراك الإنسانى للشىء المسمَّى، وحضوره فى الوعى الإنسانى. فالاسم فى واقع الأمر، هو شهادة وجود الشىء فى وعينا وإدراكنا الإنسانى، وغير المسمَّى هو حالة وسطى بين العدم الكلى للشىء والإدراك الأول له..

لعل هذا الكلام فلسفىٌّ، لا يناسب (حسبما يعتقد البعض) المقالات المنشورة فى الصحف! فلنقدم أمثلةً عليه، كى نقترب به إلى الأفهام:

نعرف جميعاً، أن فى السماء أجساماً سابحةً فى الكون اللانهائى، منها ما ندركه ونعطيه اسماً «القمر ، الشمس، عطارد.. إلخ» فيصير (موجوداً) فى أذهاننا، ومنها ما لا ندركه فلا نعطيه اسماً محدَّداً، فيصير كأنه غير موجود، أو هو فى مرتبةٍ وسطى بين الوجود والعدم. ولذلك، فإن فى سيناء (مثلاً) جبالاً كثيرة، لكننا خصَّصنا جبلاً منها باسم (جبل موسى) وجبلاً آخر باسم (جبل الربَّة) وهكذا، وما لم نعطه اسماً فهو مجرد جبل، ليس له «مستند وجود» فى وعينا، حتى نعرفه ونميِّزه باسمٍ من الأسماء، فنخرجه بذلك من التأرجح بين حالتىْ الوجود والعدم الذهنى.

واختلافُ أسماء وصفات المواضع عينها، والجماعات ذاتها، من المشكلات «المشوِّشات» للإدراك، وهى مشكلاتٌ من شأنها أن تُحدث ارتباكاً فى الوعى، سواءٌ بالنسبة للناظر فى التاريخ أو للمتأمل فى الواقع، فالكثير منا على سبيل المثال، لا يعرفون أن «بيزنطة» التى تُنسب إليها مرحلة مهمة من التاريخ (العصر البيزنطى) هى ذاتها مدينة «إستانبول» الحالية، وهى أيضاً «الآستانة» و«القسطنطينية وإسلام بول» و«إسطنبول..«

والبلدة المصرية التى وقعت عندها أولى المواجهات العسكرية بين جيش عمرو بن العاص القادم لفتح مصر، والجيش البيزنطى (جيش الروم) لها ثلاثة أسماء! فالروم يسمُّونها باسمها اليونانى «بيلوز»، والعرب الفاتحون يسمُّونها «الفرما» بينما سكان مصر يعرفونها باسم: البَرَمون، ونهرنا المسمَّى فى التوراة «نهر مصر الكبير» اسمه عند العرب «النيل» وهى تسميةٌ مشتقةٌ من اسمه اليونانى «نيلوس»، بينما كان سكان مصر القدماء لا يعرفون له إلا اسم: يارو.

وفى الحالات السابقة، ومثيلاتها، يأتى اختلافُ التسميات بسبب اختلاف اللغات المتجاورة والمتفاعلة، وبسبب اشتقاق الأسماء عبر اللغات.

وهو الأمر الذى تحدث معه أسماءٌ مخايلة، غير دقيقة، مثلما هو الحال حين نسمِّى المنطقة الأثرية الواقعة جنوب الأردن (البتراء) وهى كلمة عربية تبدو فصيحة، لكنها فى واقع الأمر تعريبٌ للكلمة اليونانية (بترا)، التى تعنى «الصخر» وهو أنسب الأسماء لهذه المنطقة الصخرية التى حفر فيها الأنباط بطون الجبال، وجعلوها عاصمةً لهم منذ القرن الأول الميلادى، أما اسمها العربى الفصيح، فهو «سَلْع» وهى تسميةٌ أصيلة لكنها غير مشهورة، والبعض من العرب يسمِّيها «الحجَر» ويُقال إنها الموضع المشار إليه فى القرآن الكريم باسم: الكهف والرَّقيم.

ومن أسباب اختلاف التسميات، الأسماء الواصفة التى يُطلقها المخالفون على بعضهم البعض. كأن يُسمِّى المسلمون ما سبقهم زمناً «الجاهلية» ويسمُّون أهل قريش «الكُفَّار»، بينما كانت قريش تطلق على النبى صلى الله عليه وسلم، وعلى أصحابه، تسميات ليس من اللائق أن نذكرها هنا..

وبالمثل، كان المسيحيون الذين يرون أنهم أصحاب (الإيمان القويم) يسمون مخالفيهم «هراطقة»، وكان اليهود يسمون غيرهم «الأمم» بينما يجعلون لأنفسهم أسماء وصفات من نوع «أبناء الله»، وهو الاسم الواصف الذى أطلقه المسيحيون، أيضاً، على أنفسهم «أبناء الربّ» ورَدَّ القرآن الكريم على كليهما بقوله تعالى) وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قُلْ فلِمَ يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خَلَق).

وفى حالات كثيرة، يتشارك اسمان أو أكثر للشىء الواحد. مثلما هو الحال، مثلاً، فى قولنا «المغول» و«التتار» على الجماعة نفسها، أو نقول «الفاطميون» و«العبيديون» على الدولة ذاتها، أو نسمِّى الموضع المشهور الآن بالقاهرة «حصن بابليون» وهو الموضع الذى كان المصريون قبل الفتح يسمونه «القصر»، وكان العرب الفاتحون يسمونه: باب إليون.

وتظهر هذه المشكلة «المشوِّشة» بوضوح، فيما يتعلق بفتوح شمال أفريقيا، والأندلس من بعد.. حسبما سيظهر لنا فى بقية هذه المقالة.

فى زمن الفتوح، كانت المنطقة المسماة اليوم (ليبيا) تسمى «المدن الخمس الغربية» أى الواقعة غرب الإسكندرية، التابعة لأُسقفها.

وكانت البلد المضطربة هذه الأيام (تونس) تُسمَّى عند العرب «أفريقية»، وما يقع غربها من الأرض الواسعة التى تُسمَّى اليوم (الجزائر) كان يُشار إليه باسم «المغرب.«

أما المملكة المغربية، التى نعرفها اليوم، فكانت تسمَّى «المغرب الأقصى» لأنها أقصى ما يقع إلى جهة المغرب، من ناحية (عاصمة) الخلافة الإسلامية آنذاك: دمشق، وقد ساد الاعتقادُ قديماً، بأن المغرب الأقصى، هو «أقصى» ما يمكن أن يصل إليه الناسُ، ولذلك فإن الفاتح المسلم) عُقبة بن نافع الفهرى(بعدما استكمل فتوح المغرب، حتى وصل إلى البحر المحيط دخل بحصانه إلى بحر الظلمات (= المحيط الأطلنطى) حتى بلغ الماء رقبة حصانه، وقال هناك»:اللهم إنى أُشهدك أنه لا مجاز (عبور) ولو وجدتُ مجازاً، لجزتُ.«

وكانت النواحى المغاربية الشاسعة، الممتدة من ليبيا إلى تونس إلى الجزائر إلى المغرب، مسكناً لمجموعة من القبائل الكبرى التى من أشهرها:زَنَاتة، هَوَّارة، كُتَامة، غمارة، جَرَاوة،

صِنْهاجة..وهى القبائل التى سيدخل أفرادها الإسلام، بعد حين، ويكون لهم دورٌ كبيرٌ فى تاريخ الإسلام بأفريقيا، وتاريخ الفاطميين بمصر.

وكانت شبه جزيرة «أيبيريا» المسماة اليوم (إسبانيا، البرتغال) وما يقع إلى الشمال منهما (فرنسا= بلاد غالة) تُسمَّى جميعاً :بلاد القوط، وبلاد الوندال .وكلتاهما) القوط، الوندال (من الجماعات التى نزحت من شمال أوروبا إلى جنوبها، واستقرت فيه، ويقال إنهما فى الأصل جماعة واحدة،وكان الرومان يسمُّون القوط والوندال (البرابرة)بينما كان العربُ يسمون قبائل شمال أفريقيا)البربر.(

وقد استقرَّ «البرابرةُ» فى القرون الميلادية الأولى بإسبانيا، واستطاعوا بمعاونة «البربر» أن يدكُّوا حصون المدينة العظمى (روما) فى بداية القرن الخامس الميلادى، واقتحموها، ثم عادوا إلى بلادهم أعزاء، مرهوبى الجانب، مسيحيى الديانة على المذهب الآريوسى) كان آريوس قد نُفى إلى إسبانيا، وطاب له المقام هناك بأحد أديرتها (وهو الأمر الذى سيقرِّب لاحقاً بينهم وبين المسلمين، لأن العقائد الآريوسية قريبة «لاهوتياً» من المعتقدات الإسلامية.

ولما ورثت بيزنطة (القسطنطينية، إستانبول) الحكم من «روما» وصار الرومان يُسَمَّوْنَ الروم)كان الرومان وثنيين، وصار الروم مسيحيين (فرضتْ بيزنطة سلطانها على بلاد غالة (فرنسا) وعلى بلاد الوندال (إسبانيا) وعلى شمال أفريقيا (بلاد المغرب) وبقى الحالُ هناك مستقراً، إلى حين، حتى ضعف سلطان بيزنطة وتراخت قبضتها على الأطراف البعيدة، فصارت النواحى الإسبانية والبرتغالية بيدِ أمراء وملوك الوندال، الذين سيطروا أيضاً على نواحى الجزائر والمغرب، وعاشوا فيها (حسبما يقول المؤرِّخون) فساداً وظلماً وقهراً لسكانها.

والمتأمل فى وقائع التاريخ، فى ذاك الزمان، يلاحظ أن انتشار المسيحية واستقرارها، كان نكبة على اليهود.

فالمسيحيون ينظرون إلى اليهودية باعتبارها مقدمةً لديانتهم أو (عهد قديم) لم يعد لها بعد ظهور بشارة المسيح (العهد الجديد) مبرر للوجود. فضلاً عن الاعتقاد المسيحى الجازم، بأن اليهود هم الذين سلَّموا السيد المسيح للرومان، ليصلبوه، وبالتالى فهم أسوأ الخلق أجمعين

ومن الناحية الأخرى، يرى اليهود أن المسيحيين ليسوا على شىء، ويعيشون على الخرافات! لأن المسيح (الماشيح) المنتظر لايزال منتظراً، ولم يأتِ بعدُ إلى هذا العالم ليجعل اليهود ملوكاً على الناس (من ألقاب المسيح: ملك اليهود..(

وبالتالى، توترت العلاقة دوماً بين أولئك وهؤلاء، وكان الحالُ يجرى دوماً على المنوال ذاته :إذا قويتْ الدولة المسيحية، عانى اليهود من الاضطهاد، وهو الأمر الذى بلغ غايته قبيل انتشار الإسلام، إذ أصدر الإمبراطور البيزنطى «هرقل» فى حدود سنة ٦٣٠ ميلادية، مرسوماً إمبراطورياً يقضى بإجبار اليهود على اعتناق المسيحية، وإلا صارت دماؤهم مباحة لمن يريد قتلهم.. وقد قُتل من اليهود آنذاك عشرات الآلاف، وفرَّ الباقون من عاصمة الديانة اليهودية (أورشليم)، التى صار اسمها فى القرون الستة الأولى للميلاد (إيليا) وأصبحت عاصمةً روحية للمسيحيين، قبل أن يصير اسمها (القدس، بيت المقدس) وتصبح عند المسلمين مدينة مقدسة:

أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين .وهو الأمر الذى يذكِّرنى، ثانيةً، بالشاعر الفلسطينى الراحل محمود درويش، حين قال فى قصيدة أخيرة له:

ومصادفةً ، صارتِ الأرضُ

أرضاً مقدسةً

ليس لأنـها نسخةٌ من فراديسَ عُلوية

بل، لأن نبياً تمشَّى هناك

وصلَّى على صخرةٍ

فهَوَى التلُّ من خشية الله

مغمىً عليه.

وكان كثيرٌ من اليهود قد فرُّوا من العذاب والقتل والقهر الدينى، إلى أبعد المواضع من قلب الدولة المسيحية (قبل انتشار الإسلام) فسكنوا من جهة «أواسط آسيا»، ومن الجهة المقابلة «أقاصى المغرب» والأندلس..

لكنهم لم يسلموا مع ذلك من الاكتواء بالويلات التى يثيرها التعصب الدينى، ففى عصر الملك الإسبانى «سيزبوت «جرى ما يقصُّه علينا العلامة د. محمد عبدالله عنان، بعبارة مؤثرة، حين يقول فى الفصل الثانى من الجزء الأول من موسوعته (دولة الإسلام فى الأندلس) ما نصُّه:

»كان يهود الجزيرة (إسبانيا) كتلة كبيرة، لكنهم كانوا موضع البغض والتعصُّب والتحامل، يعانون أشنع ألوان الجور والاضطهاد، وكانت الكنيسة منذ اشتدَّ ساعدها، تحاول تنصير اليهود وتتوسَّل إلى تحقيق غايتها بالعنف والمطاردة، وفى عصر الملك سيزبوت فُرِض التنصير على اليهود أو النفى والمصادرة، فاعتنق النصرانيةَ كثيرٌ منهم كَرْهاً ورياءً سنة ٦١٦ ميلادية، ثم توالت عليهم مع ذلك صنوف الاضطهاد والمحن، فركنوا إلى التآمر وتدبير الثورة، وتفاهموا مع إخوانهم يهود المغرب على المؤازرة والتعاون.

ولكن المؤامرة اكتشفت قبل نضجها فى عهد الملك إجيكا (سنة ٦٩٤ ميلادية)، فقرر معاقبة اليهود باعتبارهم خوارج على الدولة، ومرتدين عن النصرانية. فنـزع أملاكهم فى سائر الولايات الإسبانية، وضمَّها إلى ممتلكاته، وشرَّدهم وجعلهم عبيداً للنصارى إلى الأبد، لا يسمح لهم باسترداد حريتهم، وأَمَرَ بتحرير عبيدهم من النصارى، ونَزَعَ أبناءهم منذ السابعة لتربيتهم على دين النصرانية، وقَرَّرَ ألا يتزوَّج عبدٌ يهودىٌّ إلا بجاريةٍ نصرانية، ولا تتزوَّج يهوديةٌ إلا بنصرانى، وهكذا عصفت يدُ البطش والمطاردة باليهود أيمَّا عَصْفٍ، فكانوا قُبيل الفتح الإسلامى ضحية ظلمٍ لا يُطاق، وكانوا كباقى طوائف الشعب المهيضة (البربر، الآريوسيين) يتوقون إلى الخلاص.

وقد بدأت الغزواتُ الإسلامية للشمال الأفريقى، كما ذكرنا فى المقالة السابقة، عقب فتح المسلمين لمصر. فقد غزا عمرو بن العاص الصحراء الليبية، ثم غزا عبدالله بن أبى سرح تونس، وقتل حاكمها الأسقف العسكرى جريجورى (جُرجير) وغنم من هناك غنائم كثيرة..

وقد انشغل المسلمون حيناً من الدهر، فيما بينهم، بسبب النـزاع بين الإمام علىّ بن أبى طالب والأمير معاوية بن أبى سفيان.

ودارت بين المسلمين حروب، آل السلطان بعدها لمعاوية بن أبى سفيان الذى حرص على (توريث الحكم) لأول مرة فى تاريخ الإسلام، فأورث العرش لابنه «يزيد» الملقَّب عند بعض المؤرخين: الفاجر..

وقد ورد فى الحديث الشريف، «إن الله قد ينصر هذا الدين (الإسلام) بالرجل الفاجر.«!

وإلى مقالة الأربعاء القادم، حيث سنرى معاً حروب المسلمين فى شمال أفريقيا (ومن أهمها: حرب الكاهنة) وعبورهم إلى الشاطئ الأوروبى ، فى مغامرةٍ لم يكن أحد يتوقع لها أن تسفر عن استقرار الإسلام فى (الأندلس) لقرون طوال من الزمان.

الأُفق الأندلسى (٧/٣)..

حربُ الكاهنة وثورات البربر

والأحداث «السياق التاريخى»يمكن الكلام عن دخول المسلمين إلى الأندلس، بمعزلٍ عن لا
فى ذاك الزمان.. وقد أشرنا فى المقالتين السابقتين «الساحة الدولية» الكبرى التى جرت على
إلى أن فتوح الشمال الأفريقى، والأندلس من بعد، بدأت بغزوتين للأراضى الليبية والتونسية، قام
.بهما تباعاً عمرو بن العاص وعبدالله بن أبى سرح

وفى الغزوتين، كان القتال يدور بين العرب والروم، العرب المسلمين والروم
المنتشرة فى شمال أفريقيا، قد دخلت بعدُ فى «القبائل» ولم تكن (الملكانيين) المسيحيين
.المواجهات العسكرية النظامية

بعد سنة ٣٤ هجرية، لأنها السنة التى انتصر فيها (الفتوح) وكان من المفترض أن تنشط حركة
المسلمون على الروم فى الموقعة البحرية، المسماة من كثرة صوارى السفن المشاركة فى
.ذات الصَّوارى :القتال

غير أن اندلاع الخلاف على خلافة المسلمين بين الإمام علىٍّ بن أبى طالب (رجل الدين) ومعاوية
بن أبى سفيان (رجل الدولة) سنة ٣٥ هجرية، أدى إلى توقفٍ تام لحركة الفتوح شرقاً وغرباً، بل
.إفريقية :التى كانوا يسمونها (تونس) أدى إلى ضياع بعض البلاد من يد المسلمين، ومنها

■ ■ ■

وبعد خمس سنوات من مقتل الإمام علىٍّ (سنة ٤٠ هجرية) غدراً على يد «الخوارج» وفشلهم فى اغتيال معاوية بن أبى سفيان الذى صار آنذاك (خليفة) للمسلمين، أو بالأحرى (ملكاً) يتوارث بنوه الحكم من بعده..

عادت مع سنة ٤٥ هجرية حركةُ الفتوح إلى سابق عهدها، فقام «معاوية بن خديج» بغزو ليبيا وتونس، واستطاع أن يهزم جيش الروم هناك.

وقام «عبدالله بن الزبير بن العوام» بفتح (سوسة) وما حولها، وصار على المسلمين فتح بقية الشمال الأفريقى، بحرب الروم والبربر معاً.. وبالمناسبة، فإن اسم (البربر) لا يرتبط من قريب أو بعيد، بوصف (البرابرة)، الذى أطلقه الرومان ومن بعدهم الروم (البيزنطيون) على القبائل العنيفة التى كانت تسكن شمال وغرب أوروبا.

فالبربر اسم لقبائل سكنت الشمال الأفريقى الممتد من ليبيا إلى المغرب، من قبل مجىء الإسلام بقرون..

وبعض المؤرخين يذهب إلى أنهم فى الأصل، قبائل عربية هاجرت من الجزيرة العربية، أو هجرتها بسبب الكلأ الشحيح، وحطت بها يد الترحال فى تلك النواحى النائية. ولكن هذا الرأى، فيما أرى، يفتقر إلى الدلائل المؤكدة.

المهم، أن المسلمين استكملوا فتوحاتهم غرباً، وهو الأمر الذى قام به «عقبة بن نافع» الذى وصل إلى أقصى المغرب الأقصى (المملكة المغربية حالياً) وأوقفه المحيط الأطلنطى عن التقدم غرباً.

وكان البربر قد بدأوا الدخول فى دين الله أفواجاً، غير أن زعيماً منهم اسمه «كُسَيْلَة بن لمزم» ارتدَّ عن الدين الجديد، وجمع جيشاً حارب به المسلمين، وانتصر عليهم سنة ٦٢ هجرية، وانتزع من أيديهم (القيروان) وقتل عقبة بن نافع.

غير أن الجيش الإسلامى بقيادة «زهير بن قيس» عاد للكرِّ على البربر، وهزمهم سنة ٦٩ هجرية، واستردَّ القيروان وقتل كُسَيْلَة بن لمزم.. ولكن حروباً أخرى كانت تنتظر المسلمين، أهمها حربُ قرطاجنة وحربُ الكاهنة.

■ ■ ■

استغل الإمبراطور البيزنطى توغُّل المسلمين غرباً، ودَعَمَ عاملَه الرومىّ (حاكم قرطاجنة) بأسطولٍ كبيرٍ من جزيرة صقلية، فاجتاح الجيشُ الرومى منطقة «برقة» وقطع الطريق بين عاصمة الخلافة الإسلامية (دمشق) وجيش المسلمين الذى كان قد توغَّل غرباً..

واضطر القائد المسلم «زهير» للعودة شرقاً للدفاع عن «برقة»، لكنه انهزم على يد الروم، وقُتِل (استشهد!) ومعه معظم القوَّاد والجند.

وبذلك، فقد المسلمون الشمال الأفريقى، والجيش الذى كان قبل سنوات يمضى قُدُماً إلى جهة المغرب..

وعن هذه الهزيمة (النكسة) يقول د. عبدالله عنان فى موسوعته (دولة الإسلام فى الأندلس) ما معناه:

»كان وقع هذا الخطب شديداً فى حكومة دمشق (الخلافة الأموية) وكانت مشغولة آنذاك بمحاربة ابن الزبير وصَحْبه الخوارج عليها (الثائرين)، فمضت أعوامٌ أخرى قبل أن تتمكَّن من العناية بشؤون إفريقية (تونس)، فلمَّا انتهت الثورة وقُتِل ابن الزبير، وجَّه عبدالملك بن مروان عنايته إلى استعادة إفريقية، فولَّى عليها حسَّان بن النعمان الغسانى سنة ٧٣ هجرية (٦٩٢ميلادية) وسيَّره إليها بجيشٍ ضخمٍ كان أعظم قوة (عسكرية) سيَّرتها الخلافة الأموية إلى إفريقية، فاخترق

حَسَّان «برقة» وقصد قرطاجنَّة عاصمة إفريقية الرومانية، التى كانت لا تزال فى يد الروم، ولم يغزُها المسلمون لحصانتها واتصالها بالبحر وقُربها من صقلية، حيث كانت تُرسل إليها الإمدادات البيزنطية، بسرعة.

وحاصر «حَسَّان» قرطاجنة (قرطاج) حصاراً محكماً، ثم اقتحمها واستولى عليها، ولكن إمبراطور الروم (البيزنطيين) سيَّر إليها جيشاً بقيادة حاكمها «يوحنا» يعاونه أسطول من صقلية، وقوة من القوط أرسلها ملك إسبانيا القوطىُّ الذى أزعجه اقتراب العرب من بلاده .

فانسحب العربُ وارتدوا إلى القيروان، حتى إذا جاءتهم الإمدادات أعادوا الكرَّة على قرطاجنة، وهزموا الروم والقوط هزيمةً شديدة ففرَّوا إلى سفنهم، وخُرِّبت قرطاجنة وهُدِّمت حصونها القوية، ثم سار «حَسَّان» غرباً وهزم الروم والبربر فى عدة مواضع، واستعاد الإسلام سلطانه بين برقة والمحيط (= ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب).«

وقد نقلتُ الفقرة السابقة، على طولها، من هذا المصدر المعتمد، لأنها تشير بوضوح إلى ثلاث نقاطٍ مهمة تتعلق بالفتوح الإسلامية، وفَهْمنا لها نحنُ المعاصرين..

النقطة الأولى، أن فتح المسلمين لقرطاجنة (قرطاج) احتاج «أضخم جيش إسلامى دخل أفريقيا» ومعروف أن مدينة الإسكندرية (عاصمة مصر، مدينة الله العظمى) كانت أهم وأكبر وأمنع من قرطاجنة، فكيف استطاع عمرو بن العاص فتحها قبل ذلك بعقودٍ قليلة من الزمان، إذا كان جيشه قليلاً فى العدد والعُدة؟ إذن، فإن صورة فتح الإسكندرية (مرتين) فى أذهاننا، غير كاملة وغير سليمة. فالجيش الذى «حاصرها» به عمرو بن العاص، لم يكن بهذا العدد القليل الذى نظنه، لأنه ضمَّ معه عشرات الآلاف من العرب الذين كانوا يسكنون مصر من قبل الإسلام. وعمليةُ الفتح ذاتها (فى المرتين) تشوبها ظلالٌ قوية نتجت عن العلاقة «الخفية» بين المقوقس والمسلمين، حسبما عرضنا فى السباعية الماضية، وهو ما يفسِّر وَصْفى لفتح مصر بأنه كان، بحسب التعبير المعاصر: «تسليم مفتاح». ويفسِّر فى الوقت ذاته، العدد الضئيل جداً الذى خسره المسلمون فى حرب الإسكندرية (اثنان وعشرون رجلاً) قد يكون بعضهم قد مات أثناء «الحصار» بسبب البرد ونزلات الأنفلونزا! فى زمنٍ لم تكن فيه المضادات الحيوية التى نستعملها اليوم، قد اكتُشفت بعد.

والنقطة الثانية، هى ظهور «القوط» لأول مرة فى حرب المسلمين والروم، وقد ظهروا كحلفاء للروم ومعاونين لهم، لاعتقادهم بأنهم ما عادوا بمنأى عن الأخطار (الإسلامية) التى تجتاح الأقطار الأفريقية الشمالية، ولا بد لها فى نهاية الأمر من تهديد سلطانهم بإسبانيا.. وهو الأمر الذى وقع بالفعل بعد سنوات قليلة، كما سنرى بعد قليل.

والنقطة الثالثة الأخيرة، هى أن المسلمين خَرَّبوا أسوار قرطاجنة. ونحن نعرف أن عمرو بن العاص، كان من قبلها بعقود قد خرَّب أسوار الإسكندرية.. ومن المفترض (نظرياً) أن هذه الحصون تحمى الجيوش، والغالبُ المنتصرُ إذا كان هدفه عسكرياً مجرداً، فمن مصلحته أن يحتفظ بهذه الأسوار ليتحصَّن فيها.. لكن المسلمين كانوا يأتون إلى البلاد، ليمكثوا! لا ليجنوا خيراتها باعتبارها «مغانم» تحرسها الجيوش التى تحرسها الحصون والقلاع.. فتأمل.

■ ■ ■

أما حرب «الكاهنة» التى كانت حلقةً من حلقات «ثورات البربر» على الحكم الإسلامى، فقد وقعت فى المغرب الأقصى.

فهناك اجتمعت قبيلة (جراوة) وقبائل أخرى من البربر، تحت قيادة امرأةٍ قيل إنها كانت تشتغل بالسحر والكهانة، هى: دهيا بنت ماتية بن تيفان .والمصادر البيزنطية (اللاتينية) تسميها «داميا» والمصادر العربية تلقِّبها بالكاهنة ..وبعض المصادر، من هنا ومن هناك، تشير إلى أن هذه المرأة الزعيمة، كانت تدين باليهودية!

وهو الأمر الذى أشكُّ فيه كثيراً، لأن الديانة اليهودية، فى أصلها التوراتى وتطورها التلمودى؛ تنظر إلى المرأة نظرةً لا تسمح لها بالزعامة والقيادة، فضلاً عن «الكهانة» وعن رئاسة الجيوش.

كانت الكاهنة تحكم المنطقة المسماة (جبل أوراس) فلما جاء حسَّان بن النعمان الغسَّانى بجيشه الجرَّار، خرجت إليه بجيش أشدَّ استطاع أن يهزم جيش العرب المسلمين، ويضطره إلى الفرار شرقاً بعد موقعةٍ هائلة انتصرت فيها الكاهنة وارتد «حسَّان» إلى برقة، فسارت وراءه الكاهنة بجيشها وسيطرت فى طريقها على بلاد كثيرة، حتى صارت معظم نواحى تونس والجزائر تحت حكمها..

وظل الحال على ذلك لخمسة أعوام، حتى دَعَم الخليفة عبدالملك بن مروان جيشَ المسلمين بجماعات كبيرة من الجند، فتقهقرت الكاهنة غرباً وأحرقت فى طريقها المدن والنواحى، ليصعب على جيش المسلمين استكمال الطريق غرباً، فى تلك الصحراوات القاحلة.

لكن المسلمين لم يتوقفوا عن ملاحقتها، حتى التقى الجمعان (الجيشان) عند جبل أوراس، فظهر المسلمون على الكاهنة، وقتلوها، وانتصروا على جموعها من قبائل البربر.. والظاهر أن نصر المسلمين لم يكن ساحقاً، لأنهم ارتضوا بأن يبقى ابن الكاهنة حاكماً على منطقة جبل أوراس، على أن يدين للمسلمين بالولاء والطاعة، ويمدَّهم باثنى عشر ألف مقاتل، لدعم جيشهم وتحقيق بقية الفتوحات، تعويضاً عَمَّا فقده المسلمون فى حروبهم الدامية بشمال أفريقيا..

أتذكَّر الآن محمود درويش، حين يقول:

ألوفٌ من الجند ماتت هناك

دفاعاً عن القائدين اللذين يقولانِ:

هيَّا

وينتظرانِ الغنائم فى خيمتين حريريتين

من الجانبين

..يموت الجنودُ مراراً،

ولا يعلمون إلى الآن

مَنْ كان منتصراً.

■ ■ ■

وراحت النواحى المغاربية تدلف تباعاً فى دائرة الدولة الإسلامية، ويصير البربر رويداً من المسلمين. وإن كانوا قد ظلوا يرون فى أنفسهم شرفاً ومكانةً، ليست للعرب! وبالمناسبة، فهم لايزالون إلى اليوم فى دول الشمال الأفريقى، يستعلون بأصولهم على العرب (الحاكمين)، باعتبار أن قبائل «البربر» فى ليبيا وتونس والجزائر والمغرب، هم أصحاب البلاد الأصليون.. **وهم لا يقبلون فكرة أن البلاد لمن يسكنها ويتوالد فيها جيلاً من بعد جيل، وأن «النقاء العِرْقى» محض خرافة اجتماعية يكذِّبها التاريخُ الطويل، وتدحضها ملامحُ الناس المتشابهة فى كل قُطر.**

■ ■ ■

وفى الوقت الذى كانت فيه البلاد المغاربية (الشمال الأفريقى) تدخل فى نطاق دولة العرب المسلمين، كانت البلاد المشرقية (فارس وأواسط آسيا) تدخل فى النطاق ذاته.. وفى قلب دولة الإسلام، كانت هناك مشكلات كثيرة، وقلاقل، وحكايات.

وكان هناك رجلٌ من التابعين (الجيل الثانى بعد الصحابة) اسمه«موسى بن نصير » يقال إن مولده كان سنة ١٩ هجرية، وإن أصله من قبيلة «بكر بن وائل» الذين غلبهم خالد بن الوليد وأخذ منهم أسرى، كان منهم والده «نصير» الذى صار من موالى قبيلة «لخم»، وصار لاحقاً واحداً من حرس معاوية بن أبى سفيان.

وقد نشأ ابنه« موسى »فى بلاط الأمويين، وخدمهم فى عدة وظائف عسكرية ومدنية حتى لاحقته فى الشام اتهاماتٌ باختلاس أموال، فكاد «الحجَّاج بن يوسف الثقفى» يفتك به، لولا تدخُّل «عبدالعزيز بن مروان» أمير مصر الأمويّ، الذى أنقذه من بطش الحجَّاج وجعله حاكماً على المغرب، فثار عليه البربر من جديد، لكنه غلبهم بعدما اتخذ منهم هناك معاوناً عسكرياً هو طارق بن زياد الليثى ..الذى عبر بالجيش الإسلامى إلى الأندلس، حسبما سنذكر فى مقالتنا القادمة

الأُفق الأندلسى ٧/٤

(عبورُ المسلمين ومصيرُ الفاتحين)

هذه المقالة كتبتها فى شهر يناير الماضى (قبل الثورة) وأرسلتها للجريدة كى تُنشر، فلما جرت الوقائع التى نعرفها فى مصر، وبقية البلاد المحيطة، رأيتُ الأصوب أن أقطع سُباعية «الأفق الأندلسى» استجابةً لمجريات الأمور، وها نحن اليوم نستكمل الكلام السابق.. ولعله من المفيد، أن نذكر قبل هذه المقالة (التى لم أغير فيها حرفاً واحداً) بعض الإشارات لما أوردناه فى المقالات الثلاث السابقات، وهو ما نوجزه فى الآتى:

فى المقالة الأولى التى كان عنوانها (تمهيداتٌ ضرورية) عرضتُ لهذا التشابه بين العرب والإسبان، ومعنى كلمة «الأندلس» وقلت ما نصه: كان الغزو (الفتح) العربى الإسلامى لأفريقيا، امتداداً لفتح (غزو) مصر. فبعدما استقرت الأمور المصرية بيد عمرو بن العاص، خرج من الإسكندرية غرباً، بجيش قليل العدد والعُدَّة، ليفتح المدن الخمس الغربية (ليبيا) فغزاها، لكنه لم يفتحها ويستقر فيها. وبعد خمس سنوات خرج أمير مصر «عبد الله بن أبى سَرْح» إلى إفريقية (تونس) فاتحاً، على رأس جيشٍ قوامه أربعون ألف محارب.. وهنا لا بد لنا من وقفة أمام دلالة هذا العدد، مقارنةً بعدد الجيش الذى خرج مع عمرو بن العاص لفتح مصر، وهو ثلاثة آلاف وخمسمائة (وقيل، بل أربعة آلاف) ويأتى السؤالُ: كيف يدخل المسلمون صحراء أفريقيا الخالية نسبياً، بالمقارنة مع مصر، بهذا الجيش الجرَّار. بينما كان الجيش الإسلامى الذى خرج إلى مصر غازياً لا يزيد عدده على عشرة بالمائة من مجموع الجيش الذاهب لغزو الصحراء الخالية. علماً بأن جند الروم، كانوا يتحصَّنون بقلاع مصر والإسكندرية، وكان عددهم، بحسب التقديرات المختلفة، يتراوح ما بين الأربعين ألفاً والمائة ألف مقاتل!

وفى المقالة الثانية(كان عنوانها :اختلافُ التسمية وتسمية المخالفين) أشرت إلى الارتباك الحادث بسبب التسميات المختلفة للأشخاص والمواضع، وأوضحت الفوارق المؤدية إلى اختلاف التسميات. وقلتُ فى هذا السياق، ما نصه: فى زمن الفتوح، كانت المنطقة المسماة اليوم (ليبيا) تسمى «المدن الخمس الغربية» أى الواقعة غرب الإسكندرية، التابعة لأُسقفها. وكان البلد المضطرب هذه الأيام (تونس) تُسمَّى عند العرب «إفريقية»، وما يقع غربها من الأرض الواسعة التى تُسمَّى اليوم (الجزائر) كان يُشار إليه باسم «المغرب». أما المملكة المغربية التى نعرفها اليوم، فكانت تسمَّى «المغرب الأقصى»، لأنها أقصى ما يقع إلى جهة المغرب، من ناحية (عاصمة الخلافة الإسلامية آنذاك: دمشق. وقد ساد الاعتقادُ قديماً، بأن المغرب الأقصى، هو «أقصى» ما يمكن أن يصل إليه الناسُ، ولذلك فإن الفاتح المسلم (عُقبة بن نافع الفهرى) بعدما استكمل فتوح المغرب، حتى وصل إلى البحر المحيط دخل بحصانه إلى بحر الظلمات (المحيط الأطلنطى) حتى بلغ الماء رقبة حصانه، وقال هناك: «اللهم إنى أُشهدك أنه لا مجاز (عبور) ولو وجدتُ مجازاً، لجزتُ.»

وكانت شبه جزيرة «أيبيريا» المسماة اليوم (إسبانيا والبرتغال) وما يقع إلى الشمال منهما (فرنسا= بلاد غالة) تُسمَّى جميعاً: بلاد القوط، وبلاد الوندال. وكلتاهما (القوط، والوندال) من الجماعات التى نزحت من شمال أوروبا إلى جنوبها، واستقرت فيه. ويقال إنهما فى الأصل جماعة واحدة. وكان الرومان يسمُّون القوط والوندال (البرابرة)، بينما كان العربُ يسمون قبائل شمال أفريقيا (البربر).

وفى المقالة الثالثة، التى جاء عنوانها (حربُ الكاهنة وثورات البربر)شرت إلى القلاقل والاضطرابات التى جرت بين المسلمين الفاتحين وسكان الشمال الأفريقى، وبداية ظهور (القوط) على مسرح الأحداث، ومن ذلك أن حرب الكاهنة، التى كانت حلقةً من حلقات «ثورات البربر» على الحكم الإسلامى، قد وقعت فى المغرب الأقصى. فهناك اجتمعت قبيلة (جراوة) وقبائل أخرى من البربر، تحت قيادة امرأةٍ قيل إنها كانت تشتغل بالسحر والكهانة، هى: دهيا بنت ماتية بن تيفان. والمصادر البيزنطية (اللاتينية) تسميها «داميا» والمصادر العربية تلقِّبها بالكاهنة.. وبعض المصادر، من هنا ومن هناك، تشير إلى أن هذه المرأة الزعيمة، كانت تدين باليهودية! وهو الأمر الذى أشكُّ فيه كثيراً. لأن الديانة اليهودية، فى أصلها التوراتى وتطورها التلمودى، تنظر إلى المرأة نظرةً لا تسمح لها بالزعامة والقيادة، فضلاً عن «الكهانة» وعن رئاسة الجيوش.

كانت الكاهنة تحكم المنطقة المسماة (جبل أوراس)، فلما جاء حسَّان بن النعمان الغسَّانى بجيشه الجرَّار، خرجتْ إليه بجيشٍ أشدَّ استطاع أن يهزم جيش العرب المسلمين، ويضطره إلى الفرار شرقاً بعد موقعةٍ هائلة انتصرت فيها الكاهنة، وارتدَّ «حسَّان» إلى برقة، فسارت وراءه الكاهنة بجيشها وسيطرت فى طريقها على بلاد كثيرة، حتى صارت معظم نواحى تونس والجزائر تحت حكمها..

وظل الحال على ذلك لخمسة أعوام، حتى دَعَم الخليفة عبد الملك بن مروان جيشَ المسلمين بجماعات كبيرة من الجند، فتقهقرت الكاهنة غرباً وأحرقت فى طريقها المدن والنواحى، ليصعب على جيش المسلمين استكمال الطريق غرباً، فى تلك الصحراوات القاحلة.

لكن المسلمين لم يتوقفوا عن ملاحقتها، حتى التقى الجمعان (الجيشان) عند جبل أوراس، فظهر المسلمون على الكاهنة، وقتلوها، وانتصروا على جموعها من قبائل البربر.. والظاهر أن نصر المسلمين لم يكن ساحقاً، لأنهم ارتضوا بأن يبقى ابن الكاهنة حاكماً على منطقة جبل أوراس، على أن يدين للمسلمين بالولاء والطاعة، ويمدَّهم باثنى عشر ألف مقاتل، لدعم جيشهم وتحقيق بقية الفتوحات، تعويضاً عَمَّا فقده المسلمون فى حروبهم الدامية بشمال أفريقيا.

والآن، لنكمل الكلام فى «الأفق الأندلسى» فنقول:

استخفَّ بعضُ البربر فى أقصى الأرض (بلاد المغرب) بالوالى الإسلامى الجديد «موسى بن نصير»، الذى تولَّى الأمر هناك سنة ٨٩ هجرية، فثاروا عليه وتجمَّعوا ضده.

لكنهم فوجئوا به يضرب (بيدٍ حديديةٍ) جموعَ الثوار من قبائل هوَّارة وزناتة وكتامة وصنهاجة، ويعود بهم قَسْراً إلى حظيرة الطاعة.

وحين اعتصمت فلول الثوار ببلدة «طنجة» المطلة على البحر، عصفتْ بهم قوات المسلمين، التى قادها ضابطٌ من البربر الذين صحَّ إسلامهم، هو اليد اليمنى للأمير موسى بن نصير «طارق بن زياد الليثى» الذى استعان بالبربر الموالين للمسلمين، وفَلَّ بالحديدِ الحديدَ، حتى اقتلع بذور الثورة من حوافِّ المغرب.

كما استخفَّ الرومُ بقدرة المسلمين البحرية، فعاثتْ سفنهم فساداً فى المدن الساحلية بشمال أفريقيا. لكنهم فوجئوا بموسى بن نصير، يبنى أسطولاً بحرياً بالقرب من قرطاجنة (قرطاج) ويبحر به غازياً الجزر القريبة التى ينطلق منها الروم، مثل جزر البليار (الجزائر الشرقية) وصقلية وسردينيا، بالإضافة إلى بعض المدن الساحلية الإسبانية. وبذلك بسط المسلمون سلطانهم فى البر والبحر، وصارت بأيديهم بلاد الشمال الأفريقى، كافة، ما عدا موضع واحد هو بلدة «سبتة» الحصينة، المستعصية على الاقتحام، التى كان يحكمها آنذاك: الكونت يوليان.

وعلى الشاطئ الأندلسى المقابل، كان القوطُ يحكمون البلاد كولاةٍ للروم، أو كامتداد للامبراطورية البيزنطية، التى ورثت دولة (الرومان) الشاسعة، وصارت المسيحية (الملكانية) ديانةً لها.

وقبل عبور المسلمين إليها، كان الحال فى إسبانيا شبيهاً بحال مصر قبل وصول الإسلام ودخول البلاد تحت رايته. فمثلما كان «المقوقس» يضطهد المسيحيين اليعاقبة(المونوفيست)، كان الملوك الإسبان يضطهدون اليهود ويسومونهم أسوأ ألوان العذاب. ومثلما كان حكم (الروم) فى مصر متفسِّخاً، لا يدين بالولاء الحقيقى للإمبراطور هرقل، كان أمراء إسبانيا يتنازعون فيما بينهم، ويفشلون وتذهب ريحهم.

كانت النواحى الإسبانية تحت يد الملك «وتيزا»، ابن الملك «إجيكا». وكان الملك إجيكا قد بطش بوالد رودريك (اسمه: الكونت تيودوفرد) وسَمَل عينيه، أى قرَّب منهما قضيباً من الحديد المتَّقد، فجفَّ ماؤهما وأصيب الرجل بالعمى. وهى عقوبةٌ كانت معتادة فى أوروبا، فى ذاك الزمان البعيد.

وقد انتقم رودريك بعد حينٍ لأبيه، من ابن إجيكا «وتيزا» وخلعه عن العرش. ويُقال إنه سَمَل عينيه، مثلما سَمَل أبوالملكُ المخلوع قديماً، عينَ أبى الملك الجديد.. وقد جرى ذلك، على خلاف القاعدة التى سيعرفها الناس هناك من بعد، من الآية القرآنية (ولا تزر وازرةٌ وِزْرَ أخرى).

تولَّى رودريك (الذى سوف يسمِّيه العرب: لزريق) الحكم فى إسبانيا، سنة ٩٢ هجرية (٧١١ ميلادية) ويقال بل تولاَّه من قبل ذلك بسنوات قليلة، لأن هذا التاريخ هو بإجماع المؤرِّخين: تاريخ عبور المسلمين إلى الأندلس.

عبر المسلمون البحر إلى الجهة المقابلة للمغرب (الأندلس) بدعوةٍ من الكونت يوليان الذى كان حانقاً، حسبما قيل، على ملك إسبانيا الجديد لسببين .**الأول** منهما أن الكونت يوليان أرسل ابنته الجميلة «فلورندا» إلى البلاط الملكى فى طليطلة، كى تتعلم فنون الإتيكيت ومراسم حياة القصور.

وهو الأمر الذى كان معتاداً هناك آنذاك. غير أن الملك رودريك افتتن بجمال «فلورندا»، وطاش عقله بسبب سحر أنوثتها الطاغية، فاغتصبها. ولما علم أبوها بالأمر، استدعاها من هناك فجاءت ملفوفةً بأردية العار .. وأقسم أبوها على الانتقام.

والسبب الآخر لخلاف الكونت مع الملك، حسبما يقول المؤرِّخون، يرجع إلى أن الكونت يوليان كان يملك من القوة والمال والسفن الكثيرة، ما يؤهِّله لامتلاك الأراضى الإسبانية كلها.. وعندما انتصر الملك رودريك، فَرَّ من أمامه الأمراء الموالون للملك المخلوع، ولجأوا إلى «يوليان» للاحتماء به، كما لجأت إليه الأسرة الملكية المطرودة من البلاد. فاستقوى «يوليان» وأراد أن يحقِّق أمنيةً فى نفسه، بأن يصير ملكاً للقوط كلهم! غير أن قواه العسكرية لم تكن تكفى لتحقيق هذا الأمر، ومن هنا لجأ إلى موسى بن نصير وقائده العسكرى طارق بن زياد، طلباً لمعونتهم فى الأمر.. بعدما وعد بمكافأة.

إذن، كان عبور المسلمين إلى الشاطئ الأندلسى، فى بداية الأمر، هو مجرد (مغامرة عسكرية) تمت بدعوةٍ من القوط أنفسهم، فى إطار التنازع الواقع بينهم. وهو ما يذكرنا بما وقع بعد قرون، حين تنازع ملوك الطوائف المسلمون فيما بينهم، واستعانوا بأعدائهم، فكانت النتيجة هى خروجهم من الأندلس، مثلما دخلوها أول مرة..

يقول الفيلسوف الألمانى الشهير، هيجل: نتعلَّمُ من التاريخ، أن أحداً لم يتعلَّم من التاريخ.

كان الاتفاق «السِّرِّى» بين الكونت يوليان والأمير موسى بن نصير (وهو ما يذكرنا بالاتفاقية السرية بين المقوقس وأبى بكر الصديق) يقضى بأن يتنازل يوليان للمسلمين عن منطقة «سبتة» وقلعتها الحصينة، فتصير بأيديهم مدن المغرب وقلاعها كلها، فى مقابل أن يدعم المسلمون بجيشهم أطماع الكونت يوليان فى عرش إسبانيا (طليطلة تحديداً) وينالوا بعضاً من الغنائم.. ولم يكن بمستطاع موسى بن نصير، أن يُبرم اتفاقاً كهذا من دون استشارة الخليفة الأموى.

فأشار الخليفة عليه (وكان آنذاك: الوليد بن عبدالملك بن مروان) بأن يختبر جدوى المسألة بعددٍ محدود من السَّرايا، ولا يغامر بالجيش كله فى أرض الإسبان التى لم يعرفها العربُ من قبل ..وهكذا ذهب سبعة آلاف جندى مسلم، على رأسهم «طارق بن زياد الليثى» لمعاونة الكونت يوليان فى حربه، وكان إبحارهم من شاطئ المغرب إلى ساحل إسبانيا المقابل، بالسفن التى يملكها الكونت يوليان، الذى كان يملك أسطولاً من السفن يتاجر به فى البحر المتوسط تجارة واسعة..وتمَّ الأمر فى شهر رجب سنة ٩٢ هجرية (أبريل سنة ٧١١ ميلادية) ونزل المسلمون الأندلس لأول مرة، فى الربيع ..وبالطبع، لم يقم طارق بن زياد بإحراق السفن، حسبما يعتقد معاصرونا؛ لأنها (ببساطة) لم تكن ملكاً له أو للمسلمين.

كان طارق بن زياد جندياً صعب المراس، طويلاً أشقر، فى عينيه حَوَل، وبإحدى يديه شلل. وكان يندفع بجنده فى القتال، فيكون مثل «جلمود صَخْر حطَّه السيلُ من علٍ» وهو الأمر الذى جعل الجيشين (الإسلامى والقوطى) يتقدَّمان فى الجنوب الإسبانى، ويمضيان قُدُماً إلى طليطلة.. وكان الجيش الإسلامى بقيادة «طارق» هو الذى يتقدَّم دوماً.

وجمع رودريك (لزريق) جيشاً قوطياً ضخماً، يقترب عدده من المائة ألف، واتجه إلى الجنوب الإسبانى لقتال الغزاة المسلمين. واستمدَّ «طارق» جنداً إضافياً من «موسى بن نصير» فأمدَّه بخمسة آلاف، فكان مجموع جيش المسلمين اثنى عشر ألفاً، معهم قوات «يوليان» قليلة العدد والعُدَّة.. وفى شهر رمضان التقى الجمعان، قرب نهرٍ كبيرٍ عند وادى لكة (بكة)، وكان التفوق العددى لجيش رودريك، ولكن المسلمين كانوا أكثر تنظيماً وإقداماً وعنفاً فى القتال، خاصةً بعدما خطب فيهم «طارق بن زياد» خطبةً ناريةً تناقلها المؤرِّخون المتأخرون زمناً (ولا بد أنهم زادوها بلاغةً وتحسيناً لفظياً) وهى فيما أرى، سبب انتشار الخرافة الشهيرة القائلة بأن «طارق» أحرق السفن بعد عبوره للأندلس.. ولأن هذه الخطبة من النصوص (الفصوص) فسوف أُوردُ فيما يلى، فقراتٍ كاملةً منها:

»أيها الناسُ، أين المفر؟ البحرُ من خلفكم والعدو أمامكم، وليس لكم واللهِ إلا الصدق والصبرُ. واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة (الأندلس) أضيعُ من الأيتام فى مأدبة اللئام. وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه وأسلحته، وأقواته موفورة. وأنتم لا وزر (مساعد) لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم. وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تُنجزوا لكم أمراً (تنتصروا) ذهبت ريحكم وتعوَّضت القلوب عن رعبها منكم، الجرأة عليكم. فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم، بمناجزة هذا الطاغية (لزريق)، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة (خرج من وراء الأسوار) وإن انتهاز الفرصة فيه لممكنٌ، إن سمحتم لأنفسكم بالموت. وإنى لم أحذركم أمراً، أنا عنه بنجوةٍ. ولا حملتكم على خطةٍ، إلا بدأتُ بنفسى. واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشقِّ، قليلاً، استمتعتم بالأرفه الألذِّ طويلاً.. وقد بلغكم ما بهذه الجزيرة من الحور الحسان، بنات اليونان، الرافلات فى الدرِّ والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان.. أيها الناس، ما فعلتُ من شىءٍ فافعلوا مثله، إن حملتُ (تقدَّمتُ للقتال) فاحملوا، وإن وقفتُ فقفوا. ثم كونوا كهيئة رجلٍ واحدٍ فى القتال. وإنى عامدٌ إلى طاغيتهم بحيث لا أُنهيه حتى أخالطه أو أُقتل دونه، فإن قُتِلتُ فلا تهنوا ولا تحزنوا (الآية) ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم (الآية) وتولُّوا الدُّبر لعدوكم، فتبدوا بين قتيل وأسير. وإياكم، إياكم أن ترضوا بالدنيَّة.. وها أنا حامل (مندفع) حتى أغشاه (يقصد لزريق) فاحملوا بحملتى.«

وانتصر المسلمون، وقتلوا رودريك الملك (لزريق) وهزموا جيشه.

وقد ساد الرعب من جيش المسلمين فى أنحاء أيبيريا (إسبانيا، والبرتغال) واستكمل «طارق» حروبه فى الأنحاء، وعبر «موسى بن نصير» بجيش آخر، فسار إلى مدن أخرى غير تلك التى افتتحها «طارق» حتى إذا التقى الجيشان المسلمان أخيراً، كان معظم أنحاء (الأندلس) قد صارت بين المسلمين ..وتوارى «يوليان» عن الأنظار، رويداً، وصار الأمر كله بيد المسلمين. وفكَّر «موسى بن نصير» فى استكمال الفتوح شمالاً وشرقاً، بغزو فرنسا (بلاد غالة) وإيطاليا. لكن الخليفة رفض هذا المقترح، واستدعى «موسى» إلى دمشق وأمره أن يأتى معه بطارق بن زياد ..وهنا، لا بد لنا أن نتوقف قليلاً لنرى «مصير الفاتحين» ونتبصَّر فى هذا الأمر ونتأمَّله.

نسيتُ أن أقصَّ عليكم، قبل قليل، ما رواه معظم المؤرِّخين القدماء والمحدثين عن لحظة اللقاء الأول بين موسى بن نصير وطارق بن زياد، بعدما تمت الفتوحات الإسلامية الأولى فى أرض

الأندلس.. يقول المؤرِّخون» :وقصد موسى طليطلة، فالتقى بطارق على مقربةٍ منها، وكان قد سار إلى استقباله (والترحيب به) فأنَّبه موسى وبالغ فى إهانته (لأنه كان قد تأخر فى فتح بلدة اسمها: ماردة) وزجَّه مصفَّداً إلى ظلام السجن بتهمة الخروج والعصيان، وقيل بل هَمَّ أيضاً بقتله، لكنه ما لبث أن عفا عنه، وردَّه إلى منصبه، وزحَفَا معاً نحو الشمال الشرقى حتى نفذ (موسى) إلى مملكة الفرنج، ووصل إلى مدينة ليون (الفرنسية).

ويذكرنى ما جرى لطارق بن زياد (الفاتح) بما جرى مع خالد بن الوليد (الفاتح) الذى كوفئ على فتحه العراق والشام، بالعزل من قيادة الجيش.. وعمرو بن العاص الذى فتح مصر والإسكندرية (أول مرة) فكان جزاؤه العزل! وحين عاد الروم للإسكندرية، أعيد عمرو إلى قيادة الجيش وفتحَها مرة أخرى، فكان جزاؤه مرةً أخرى: العزل.. وعبد الله بن أبى سَرْح الذى انتصر على الروم فى «ذات الصوارى» وغزا «تونس» لأول مرة، وغنم منها، كان جزاؤه بعد مقتل الخليفة عثمان: العزل. ومات معزولاً فى قريةٍ بنواحى فلسطين، وبجواره زوجته، الصغيرة سناً، بُسيسة بنت حمزة بن ليشرح (التى قد تكون هى الفتاة التى ذكرتها فى رواية: النبطى، وقد لا تكون)التى ظلت تنتظر موته حتى تعود إلى مصر وتتزوَّج حبيبها الأول، وهو ما تم بالفعل عقب وفاة عبد الله بن أبى سرح.

والقواد الذين افتتحوا إفريقية، من أمثال «عقبة بن نافع» قُتلوا فى الحروب (الفتوح) بعدما قدموا كلَّ ما يمكنهم تقديمه من بطولات، كان خيرها يصبُّ فى بلاط الخليفة الأموى. وكان مقتل الفاتح «عبدالله بن الزبير» على يد الخليفة نفسه!

كان الخليفة الأموى هو الذى رفض اقتراح «موسى بن نصير» باستكمال الفتوح إلى إيطاليا، لإنهاء الإمبراطورية المسيحية البيزنطية إلى الأبد، وهو الأمر الذى كان ممكناً ومضمون النجاح لو كان الخليفة قد سَيَّر جيشاً آخر من الشام لإحكام الحصار على بيزنطة وروما وسائر الأقطار الأوروبية المطلة على البحر المتوسط (ولكن الخليفة كان له رأى آخر، غير نشر الإسلام)

فماذا كان مصير «موسى» الفاتح المغوار، عند الخليفة؟ يقول المؤرِّخون» :استدعى الخليفةُ (موسى بن نصير) إلى دمشق (مقر الخلافة) فذهب إليه ومعه من الغنائم ثلاثون ألف أسير، بينهم أربعمائة أمير قوطى على رؤوسهم التيجان، وثلاثون ألف عذراء من بنات ملوك القوط وأعيانهم، وعدد غفير من العبيد والغلمان والمجوهرات..«

وكان موسى بن نصير قد جعل ولده (عبدالعزيز) حاكماً على الأندلس، حتى يعود إليها. لكنه لم يعد، ولم يظل ابنه حياً! فقد أرسل الخليفة جماعةً إلى (عبدالعزيز بن موسى بن نصير) فقتلوه فى قصره، وحزُّوا رأسه وجاءوا به إلى الخليفة، فدفعه فى المجلس إلى أبيه موسى (الفاتح) وجرَّده من مناصبه وأمواله، وبالغ فى إيذائه وإذلاله.. ومات موسى بن نصير فى قرية نائية بالحجاز، بعدما قضى أواخر حياته شحاذاً، يدور على الخيام ليسأل الناس) يشحت (الطعام.

يا ألله على التاريخ (الحقيقى) وعلى واقعنا المعاصر .

الأُفق الأندلسى (٧/٥)

حركاتُ الحكام.. وزمانُ الوصل بالأندلسِ

حين زحف المسلمون نحو الأندلس، فاتحين أرضاً لم يعرفوها، اتجهوا إلى هناك فى موجاتٍ عاتية مزلزلة، تشبه ما نسمِّيه اليوم «تسونامى..«

وقد كانت الموجة الأولى، تضم السبعة آلاف مقاتل الذين عبروا (بقيادة طارق بن زياد) المضيق، الذى سوف يسمَّى باسمه لاحقاً، وكان يقال له من قبل: أعمدة هرقل. ثم كانت الموجة الثانية مؤلَّفة من خمسة آلاف مقاتل، دعم بهم «موسى بن نصير» الجيشَ الذى يقوده طارق بن زياد ويقترب به من النصر.

ثم كانت الموجة الثالثة الأخيرة، حين عبر موسى بن نصير إلى الأندلس على رأس جيش إسلامى قوامه عشرة آلاف مقاتل.. وما بين هذه الموجات العسكرية الثلاث، كانت جماعاتٌ مسلحة من المسلمين تعبر إلى العالم الجديد، للمشاركة فى الفتوح وتحصيل ما يمكن نواله من فىء وغنائم ونساء حسان، خاصةً أن المسلمين كانوا يذهبون إلى هناك، من دون أن يصطحبوا معهم زوجاتهم، وهى مسألة سوف نعود إليها بعد قليل.

ولكن هناك مسألة أخرى لا بد من الإشارة إليها الآن، وهى جديرة بالنظر والاعتبار، مفادها أن المسلمين حين ذهبوا إلى الأندلس وفتحوها ونزعوا عنها سلطان القوط، فى فترةٍ زمنيةٍ قصيرةٍ تدعو للدهشة (عامٍ واحد وشهرين، فقط) كانوا فى مبتدأ الأمر يفعلون ذلك بدعوةٍ من الأمير القوطى «يوليان»، المتنازع مع الملك القوطى رودريك (لزريق) ..فكانت النتيجة أن أزاح المسلمون القوط كلهم، وملكوا البلاد بدلاً منهم. وحسبما يخبرنا التاريخ، فإن ذلك هو مصيرُ الذين يستعينون على بعضهم، بغيرهم.. فتأملوا!

■ ■ ■

وكما أشرنا فى آخر المقالة السابقة، فإن موسى بن نصير كان يريد أن يعبر بجيشه إلى بقية بلاد «النصرانية» المطلة على البحر (المتوسط)، حتى يجعل هذا البحر بحيرة إسلامية، تشرف على شواطئها (دولة الإسلام) من الجهات كافة.

لكن الخليفة لم يوافق، واستدعى الفاتح «موسى» إلى دمشق وجرَّده مما يملك، ونكَّل به، ودسَّ على ابنه «عبدالعزيز» جماعة قاموا باغتياله.. وقد أشار العلامة المصرى المعروف د. محمد عبدالله عنان فى كتابه (دولة الإسلام فى الأندلس) إلى مشروع موسى بن نصير، بقوله:

فكَّر القائد الجرىء فى أن يخترق بجيشه جميع أوروبا، وأن يصل إلى الشام من طريق القسطنطينية (بيزنطة، إستانبول) وأن يفتح فى طريقه أُمم النصرانية والفرنجة كلها، وهو ما يجمله ابن خلدون فى تلك العبارة القوية» :وجمع (نَوَى) أن يأتى المشرق على القسطنطينية، ويتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس، ويخوض ما بينها من بلاد الأعاجم مجاهداً، مستلحماً لهم، إلى أن يلحق بدار الخلافة فى دمشق». وكان موسى يقدر على تنفيذ مشروعه العظيم، بجيش ضخم يقتحم البرنيه (شمال إسبانيا) يؤيِّده من البحر أسطولٌ قوىٌّ، فيبدأ بافتتاح مملكة الفرنج ثم يقصد إلى مملكة اللومبارد فى شمالى إيطاليا، فيخترقها فاتحاً إلى روما قاعدة النصرانية، فيفتتحها ويقضى فيها على كرسى النصرانية، ويتابع سيره بعدئذٍ شرقاً إلى سهول الدانوب مثخناً فى القبائل الجرمانية التى تسيطر على ضفافه، ثم يخترق الدولة البيزنطية حتى قسطنطينية فيستولى عليها، ثم يعبر آسيا الصغرى (الأناضول ، تركيا) قاصداً إلى دمشق. فيصل بذلك أملاك الخلافة الإسلامية فيما بين المشرق والمغرب من طريق الشمال، كما اتصلت من طريق الجنوب. ولم يكن هناك، ما يحول دون تنفيذ هذا المشروع الضخم.

■ ■ ■

وبعدما أوضح وجاهة هذا (المشروع) والدلائل المؤكِّدة لإمكان نجاحه، اكتفى د. محمد عبدالله عنان بقوله إن» :سياسة الإحجام والتردُّد التى اتبعها بلاط دمشق، أودت بذلك المشروع البديع، إذ كتب الوليد بن عبدالملك إلى موسى بن نصير يحذِّره من التوغل بالمسلمين فى دروب مجهولة، ويأمره بالعودة، فارتدَّ موسى مرغماً آسفاً ..«وهذا الرأى يقرره أيضاً معظم المؤرخين، ويكررونه فى كتبهم. وكانوا يعلِّمونه لنا فى المدارس، على اعتبار أنه إحدى حقائق التاريخ. ومع ذلك، فإننا إذا طبَّقنا عليه مقولة ابن خلدون» ينبغى علينا إعمال العقل فى الخبر« لظهر لنا وجهٌ آخر للأمر.. على النحو التالى:

إذا كان الخليفة الأموى قد (تردَّد) فى فتح بقية البلاد الأوروبية، فلماذا لم (يتردَّد) فى البطش بالفاتح «موسى بن نصير» وفى إزاحة الفاتح «طارق بن زياد» عن المشهد العام، وفى اغتيال الفاتح «عبدالعزيز بن موسى بن نصير » فكيف وهو المتردِّد، أن يصرَّ على الفتك بهؤلاء الأبطال الفاتحين؟

وربما قال البعض، لعلَّ الخليفة قد أراد تأجيل المواجهة مع العالم المسيحى، ولم يتسرَّع فى القضاء على العاصمة الدينية «بيزنطة» مراعاةً لمشاعر المسيحيين الذين يعيشون فى ظل الدولة الإسلامية الجديدة .. وربما يقول البعض الآخر: بل هى من حكمة الخليفة الأموى، الذى قدَّر الأمور تقديراً صحيحاً، ولم يشأ أن يدخل بالجيش الإسلامى فى مغامرة غير مأمونة العواقب، وقد تُودى بحياة الآلاف من الأبطال.

وفى الردِّ على هذه الأقوال، نقول : أما «المغامرة » فقد ارتضى الخليفة بها حين وافق على عبور المسلمين إلى الأندلس، لمعاونة الأمير يوليان فى حربه (القوطية / القوطية) أملاً فى الحصول على نصيب من المغانم. فلا معنى، بعدما سيطر المسلمون على الأندلس، للإحجام عن مغامرة أقل خطراً، خصوصاً أن المسلمين كانوا آنذاك، يمتلكون أسطولاً بحرياً قوياً، بإمكانه أن يدعم حركة الفتوح للنواحى الأوروبية.

■ ■ ■

وأما الحجة الزاعمة بأن إحجام الحاكم العام (الخليفة الأموى) عن الموافقة على مشروع موسى بن نصير، لأنه يتضمَّن إسقاط عاصمة المسيحية فى العالم آنذاك (بيزنطة)، وهو ما سوف يثير المسيحيين الذين يعيشون بين جنبات دولة الإسلام. فهى حجة ضعيفة لا يمكن الاعتماد عليها، لأن غالبية المسيحيين فى العراق وشرق الشام كانوا نساطرة، وغالبية المسيحيين فى مصر كانوا يعاقبة. وأولئك وهؤلاء، بينهم وبين الكنيسة (الملكانية) فى بيزنطة، خلافات عميقة ومنازعات طويلة تحول بهم عن التعاطف مع الكنيسة المخالفة لهم فى المذهب العقائدى، بل كانوا يتمنون زوالها.. بالإضافة إلى أن سقوط العاصمة الدينية / السياسية (بيزنطة) لا يعنى إسقاط الديانة ذاتها، بل كانت العاصمة الدينية الحقة للمسيحية (إيلياء، أورشليم، بيت المقدس) بيد المسلمين من قبل ذلك بقرابة قرنٍ من الزمان، ولم يثر هذا الأمر حفيظة أهل الديانة المسيحية. وقد سعت الدولة الأموية لإسقاط القسطنطينية، مرتين، من جهة الشرق فلم تفلح . كانت المرة الأُولى سنة ٤٩ هجرية، فى عهد معاوية بن أبى سفيان، والمرة الأخرى سنة ٩٨ هجرية فى عهد سليمان بن عبدالملك.. وقد ظل النـزاع السياسى/ الدينى قائماً، ولم تكفَّ محاولات الاقتحام المسيحى (الحروب الصليبية) ومحاولات السيطرة الإسلامية (الجهاد) حتى انتهى الكرُّ والفرُّ بعد قرون، حين أسقط العثمانيون الذين جاءوا بعد الأمويين بقرون طوال، العاصمة الدينية / السياسية (القسطنطينية، بيزنطة، إستانبول) وحوَّلوا أكبر كنيسة فى العالم «آيا صوفيا» إلى مسجد يصلى فيه المسلمون.. ومع ذلك لم تسقط الديانة المسيحية، ولم نعرف أن المسيحيين فى العراق ومصر والشام، قد اكترثوا كثيراً لسقوط (عاصمة الديانة) بيد المسلمين.

فقد استقر فى الوعى الدينى المسيحى منذ زمنٍ طويل، سابقٍ بكثير على ظهور الإسلام، أن «مدينة الله» فى السماء وليست على الأرض. وهو المعنى الذى صاغه ببراعة، فى بدايات القرن الخامس الميلادى، القديس «أوغسطين» الذى كتب إثر سقوط روما أمام هجمات الوندال (البرابرة، الوثنيين) كتابه الشهير الذى صار مرجعاً أساسياً من مراجع المسيحية، وكان عنوانه : مدينة الله.

نخرج مما سبق، بأن ما يقال عن «تردُّد» الخليفة الأموى هو محض زعم لا دليل عليه، ولا احتجاج به. خصوصاً أن الخليفة لم يوافق على المشروع ثم يرفضه، مثلما كان الحال مثلاً عند فتح مصر، حيث وافق الخليفة «عمر بن الخطاب» على مشروع «عمرو بن العاص» ثم عاد وأشفق منه وكاد يتراجع، لولا أن سبق السيف العزل وكان من حيلة «عمرو» ما كان. فإذن، لا وجود لهذا (التردُّد) المزعوم .. فما السر فى رفض الخليفة الأموى، خُطَّة الفتح الطموحة؟

■ ■ ■

إن استقراء الوقائع القديمة، والمعاصرة، يدلُّ على أن الحكام كانت لهم (حركات) تضمن لهم البقاء متفردين، وتطفئ سطوع غيرهم. حتى لا يكون ذلك مقدمة لإزاحتهم من فوق (الكرسى) أو تهديد استقرارهم فى السلطة. وقد كان للفاتحين الكبار صورة زاهية فى أذهان الناس، وهو ما يؤهلهم للطمع فى الحكم باعتبارهم (نجوماً) يتمتعون بالشعبية والقبول بين الناس، على أساس (أعمالهم العظيمة) وليس على الأساس الوراثى الذى يحكم الخلفاء وفقاً له..

ومن هنا، طمس الخليفة الأموى (نجومية) موسى بن نصير بالإذلال، وقطع سيرة ابنه عبدالعزيز بالاغتيال، وحجب سطوع طارق بن زياد بالإزاحة عن المشهد العام.. وهذه الغايات السلطوية (الحركات) حسبما أرى، أهمُّ عند الخليفة من إسقاط عاصمة المسيحية فى العالم، ومن دخول المسلمين عاصمة الدولة البيزنطية.

إذ الأهمُّ عنده فى واقع الأمر، هو بقاؤه على رأس الدولة، وضمان عدم المنازعة أو الاستقلال عنه بالسلطة. وهو الأمر الذى حدث بالفعل بعد ذلك فى مصر، وفى الأندلس، وفى وسط آسيا؛ عندما حظيت هذه البلاد برجال أقوياء (نجوم) كانوا من القوة بحيث استقلوا بالبلاد عن سلطان الخليفة ..وإذا أمعنا النظر فى زماننا الحالى، لوجدنا كثيراً من الصفات (الحركات) التى تجمع الحكام العرب الذين يتساقطون اليوم تباعاً، ومن أهم هذه الصفات أنهم ما كانوا خلال عقود حكمهم، يسمحون بسطوع نجوم سياسية أو عسكرية أو فكرية فى بلدانهم، كى يبقى الحاكم منهم متفرِّداً باستحقاقه للكرسى .فكأن (الكرسى) أهمُّ من إسقاط إسرائيل، أو بيزنطة، أو غيرها من عواصم «الأعداء» الذين يلعب وجودهم، فى واقع الأمر، دوراً حيوياً فى إبقاء كراسى الحكم سالمة لأصحابها، ولأولادهم من بعدهم.

■ ■ ■

ومن جملة (حركات) الخلافة الأموية فى الأندلس، الحرص على تبديل الولاة الذين يحكمون هناك باسم الخليفة الأموى.

حتى إن عدد الولاة الذين أرسلتهم الدولة الأموية لحكم الأندلس باسم «الخليفة الأموى» بلغ فى السنوات الخمس والأربعين الأولى من حياة الإسلام فى الأندلس، خمسة وعشرين والياً. أى أن متوسط حكم الوالى منهم، كان يقل فى المتوسط العام عن عامين!

مع أن تأسيس الحكم واستقرار أوضاع (الأرض الجديدة) كان يتطلب بقاء الوالى لفترة كافية حتى يتمكن من إرساء قواعد الدولة. لكن حرص الخليفة على عدم استقلال الولاة بالأندلس، كان أهمَّ عنده من استقرار هذه النواحى البعيدة، وبقائها فى حدود دولة الإسلام..

ولذلك، فقد التهم «عبدالرحمن الداخل» بلاد الأندلس، حسبما سنذكر فى مقالنا القادم، لأن هذه البلاد كانت تفتقر لأنظمة حكم مستقرة وموحَّدة، بسبب السياسات الأموية التى وضعت مهمة الحفاظ على سلطانها ببلاد الأندلس، فى مرتبةٍ أعلى من المهام المؤدية إلى استقرار هذه النواحى وضمان سلامتها.

■ ■ ■

غير أن تأسيس دولة الإسلام فى الأندلس، وإن كان قد افتقر إلى رعاية الخلفاء ودعمهم، إلا أنه نجح بفضل أفعال الأفراد من المسلمين الذين مَدُّوا جسور التعايش مع أهل البلاد، وأمَّنوهم، وغرسوا بذور الوصل فى أرض الأندلس.. فهؤلاء الذين عبروا إلى الأندلس، اختاروا البقاء فيها كفاتحين، لا غزاة، وهو الأمر الذى تجلَّى مبكراً فى معاهدة الصلح (العادلة) التى أبرمها عبدالعزيز بن موسى بن نصير، مع الملك القوطى (تيودمير) الذى يسمِّيه العرب «تُدمير» وكان نصها كالتالى:

»نسخة كتاب الصلح الذى كتبه عبدالعزيز بن موسى لـ«تدمير».. أنه نزل على الصلح، وأن له عهد الله وذمته بأن لا ينـزع عنه ملكه، ولا أحد من النصارى عن أملاكه. وأنهم لا يُقتلون ولا يُسْبَوْنَ، أولادهم ولا نساؤهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا تحترق كنائسهم.. وأن الذى اشتُرط عليه، أنه صَالَحَ على سبع مدائن.. وأنه لا يأوى لنا عدواً، ولا يخون لنا أمناً، ولا يكتم خبراً علمه. وأنه عليه وعلى أصحابه ديناراً كل سنة، وأربعة أمداد قمح وأربعة أمداد شعير .. كُتب فى رجب سنة أربع وتسعين من الهجرة.«

ولم تكن هذه المواثيق والاتفاقيات، وحدها، هى القاعدة الوحيدة التى قام عليها (الوصل) فى دولة الإسلام بالأندلس. إذ دعمت ذلك قواعد أخرى وسلوكيات إنسانية (طيبة) من جهة الفاتحين المسلمين، إلى سكَّان الأندلس من المسيحيين واليهود.

وقد مَرَّ بنا فى بداية المقالة أن أفراد الجيش الإسلامى، كانوا قد عبروا إلى الأندلس من دون زوجاتهم السابقات (الصحراويات) فلما وجدوا نساء الأرض الخضراء الجديدة، جميلات، لم يفكروا فى قضاء الوطر منهن باعتبارهنَّ سبايا أو غنائم حرب. بل تزوَّجوا منهن، فأنجبوا جيلاً جديداً: إسبانى الأمومة، إسلامى الأبوة والديانة.

وكان «عبدالعزيز بن موسى بن نصير» هو أول مَنْ تزوج هناك. فقد اقترن بالملكة «إيجلونا» أرملة الملك رودريك، وشجَّع المسلمين على الزواج من الأندلسيات، فتشجَّعوا. ولو كان الدين الإسلامى يسمح للنساء المسلمات بالزواج من غير المسلمين، لكان معدَّل التزاوج الذى تم فى الأندلس، قد صار أعلى. وقد أشار كثيرٌ من المؤرخين إلى المعدَّل العالى لزواج الرجال المسلمين بالنساء الأندلسيات، المسيحيات، عقب الفتح وطيلة «زمان الوصل بالأندلس.«

■ ■ ■

ومن بعد فتح الأندلس بأربعين سنة، أو نحو ذلك، كانت الحياة هناك قد صارت أفضل للجميع، يهوداً ومسيحيين ومسلمين .. فجيش الإسلام يحمى البلاد ويحصل على الضريبة (الجزية) فى مقابل ذلك، والجيل الجديد من المولَّدين (أبناء المسلمين والمسيحيات) ينتشر فى المدن والنواحى، ويمارس الأنشطة العامة بلا حساسية دينية. واليهود الذين كانوا مقموعين صاروا آمنين فى ظل الحكم

الإسلامى، الذى لا يرى فرقاً بين المسيحيين واليهود، وينظر إليهما معاً على اعتبار أنهما أهل ذمة..

وازدهر النشاط التجارى والزراعى كثمرة للاستقرار، بعد عقود من تطاحن أمراء القوط وفتكهم ببعضهم، وبعموم الناس.. وكاد الأمر يستقيم، فيصنع مع الوقت زمناً أندلسياً بديعاً (أجمل مما نعرفه)، لولا جاء الأمير الفاتك السفاحُ المسمَّى «عبدالرحمن الداخل» الملقَّب بصقر قريش .

الأُفق الأندلسى(٦/٧)

صقرُ قريش .. السَّفَّاح الثانى

يرى كثيرٌ من المؤرِّخين أن الدولة الأموية التى فتحتْ الأرض شرقاً وغرباً، باسم الإسلام، قد سقطت فى أوج قوتها (فجأة) سنة ١٣٢ هجرية، بعد عقود من الزمان، حافلة، امتدت بهذه الدولة من بعد قيامها على يد معاوية بن أبى سفيان، السلطوىِّ الماهر الماكر(صاحب مقولة: لو كان بينى وبين الناس شعرةٌ، ما قطعتها)وتحويلها للحكم إلى» مُلْكٍ عَضُوض «يتوارثه بنو أمية دون غيرهم، ثم انهيارها فى السنة المذكورة، واستيلاء العباسيين على ممتلكاتها..

وقد يرى كثيرٌ من المعاصرين، أيضاً، أن دولة الرئيس السابق «مبارك» قد سقطت مؤخراً (فجأة) فى أوج قوتها واستقرارها واستعدادها لتوريث الحكم، ليكون مُلكاً عضوضاً ضمن إطارٍ سياسىٍّ لا هو بالملكى ولا بالجمهورى.

وفى واقع الأمر، فإن وقائع التاريخ والزمن المعاصر لا تعرف هذا الحدوث (المفاجئ) ولا تعترف بوهم وقوع الحدث (فجأة)، لأن الأحداث مهما صغرت أو كبرت، فلا بد من اجتماع عدة عناصر لوقوعها.

وكلما كان الحدث أكبر، كانت مسبباته ودواعى وقوعه، أكثر.. غير أن كثيراً من الناس ينظرون للوقائع على نحوٍ (قَدَرِىٍّ) يرتضى بالاندهاش وتقليب الأَكُفِّ وترديد عبارات من مثل :سبحان من له الدوام، ما طار طيرٌ وارتفع إلا كما طار وقع، الدنيا فانية .. إلى آخر هذه الأقاويل التى تُعفى الأذهان من الغوص وراء أسباب وقوع الحوادث الكبرى.

وبالطبع، فلن نخوض هنا فى بحث الانهيار (المفاجئ) لدولة الرئيس مبارك، لبيان أنه لم يكن مفاجئاً ولا قَدَرِيّاً. أو بالأحرى، سوف نؤجل الخوض فى ذلك إلى «السباعية» التى ستأتى بعد (الأفق الأندلسى) وسيكون عنوانها العام: مبادئ الفقه الثورى..

أما الآن، فإن الأهمَّ هو بيان الأسباب التى اجتمعت، فأسقطت الدولة الأموية فى دمشق (عاصمة الخلافة) وانبعاث فرع منها، مرة أخرى، فى الأندلس. وفى ذلك نقول:

أن معاوية بن أبى سفيان (بن حرب بن أمية) كان قد أسَّس دولة بنى أمية بعدما انتصر على الإمام علىّ بن أبى طالب، بالخديعة الشهيرة» رفع المصاحف فوق أَسِنَّة الرماح «ثم كان ما كان من(التحكيم) الذى راوغ فيه عمرو بن العاص، لصالح معاوية، فانتهت مقاليد الحكم الإسلامى إلى معاوية الذى أورث ابنه(يزيد)ومن بعدهما صارت الخلافة متداولة بين بنى أمية، دون غيرهم.

ونعرف أن دولة الأمويين شهدت خلال عقود حُكمها أفعالاً لا يرضى عنها عموم المسلمين، منها: التنكيلُ بآل بيت النبوة وقتل كثيرين منهم، كالإمام الحسين الذى قتلوه فى كربلاء سنة ٦١ هجرية.. والاستخفافُ بحرمة مكة والمدينة، ومعاقبة الساكنين هناك على عدم طاعتهم للأمويين، بإرسال

جيشٍ عاث فساداً فى المدينة المنورة (يثرب) واستباح الحرم النبوى، وبعدها قصف الكعبة وبيوت مكة بقذائف المنجنيق (الأحجار المشتعلة) وجرت أمور لا يمكن وصفها بأقل من الكفر والفسوق والعصيان.

ونعرف مما قاله ابن خلدون، من بعد، أن الانغماس السلطوى فى التَّرف والملذَّات والفساد المستهتر برأى الناس المحكومين، هو مقدمة لإسقاط الحاكمين وتفكك دولتهم.

وقد شهد الزمن الأموى كثيراً من هذه المقدمات المنذرة بالسقوط، عبر كثير من ألوان الترف والفسق والفساد التى اصطبغ بها كثير من الخلفاء الأمويين والأمراء الذين ارتبطوا معهم برابطة القرابة.. وحتى الاستثناء الوحيد (عمر بن عبد العزيز) لم يكن إلا استثناءً عابراً، سرعان ما اتخذ الأمويون التدابير المؤدية إلى إزاحته عن الحكم، وعن الحياة كلها، ليعودوا من بعده سيرتهم الأولى التى يستقبحها عموم المسلمين.

ونعرف أن آل بيت النبوة وأقارب النبى، صلى الله عليه وسلم، خصوصاً أبناء عمه (العباس بن عبد المطلب) كانوا قد هربوا من الجزيرة والشام والعراق، إلى النواحى الشرقية (الفارسية) فاجتمع حولهم مشايعو الإمام علىٍّ، الذين سيعرفون باسم: الشيعة، وصار منهم أئمة يلتفُّ الناسُ حولهم ويلتفُّ الأمويون عليهم لقطع شأفتهم؛ تارةً بأن يدسُّوا عليهم مَنْ يدسُّ لهم السُّمَّ، مثلما حدث مع «أبى هاشم» الذى مات مسموماً بتحريض الخليفة الأموى سليمان بن عبدالملك. وتارةً بحرب من خَرَج منهم طالباً العرش، مثلما حدث مع «إبراهيم الإمام» الذى زجَّ به الخليفة الأموى مروان الحمار (حمار الجزيرة) إلى السجن حتى مات فيه سنة ١٣٢ هجرية.

وفى السنة المذكورة، دعا أبو مسلم الخراسانى للإمام أبى العباس عبد الله بن محمد، العلوى الطالبى، الملقَّب بالسفاح.

وجمع جيشاً بلغ قوامه عشرين ألفاً، غلب به جيش الأمويين البالغ مائةً وعشرين ألفاً !لأن جيش الشيعة العباسيين كان أكثر إقداماً وجرأةً وحماسةً، من جيش الأمويين الذى يدافع عن دولة الترف والرخاوة والفساد.. وانتزع العباسيون الخلافة من الأمويين، ودخلوا عاصمتهم «دمشق» ثم جعلوا لأنفسهم، لاحقاً، عاصمةً أخرى هى بغداد.

والعجيب أن العباسيين، الذين يُفترض فيهم التُّقى والصلاح (على الأقل من حيث انتسابهم لبيت النبوة) مارسوا عنفاً أفظع بكثير من العنف الذى اقترفه الأمويون وتراكمت آثاره فى النفوس حتى سقطت دولة بنى أمية.

فقد سار الخلفاء العباسيون الأوائل على النهج الذى رأوه مناسباً لاحتفاظهم بالعرش .. فكان أول هؤلاء الخلفاء (أبوالعباس السفاح)جديراً بالفعل بلقب السفاح، فقد سفح دماء الأمويين الذين وقعوا فى يده، وراح يفتش عن أقاربهم فى كل مكان، والسيف فى يده جاهزٌ للذبح، فقضى على معظم المنتسبين للبيت الأموى، بمن فيهم الأطفال والنساء.

وبلغ به الإمعان فى القتل والتشنيع أنه أعطى أماناً للأمويين، فظهروا، فذبحهم وألقى بجثثهم إلى الكلاب! وأنه أخرج رفات الخلفاء الأمويين السابقين من المقابر، ومزَّقها وشنَّع بها.. لكنَّ شاباً من بنى أمية، استطاع أن يفرَّ إلى بلاد المغرب والأندلس.

■ ■ ■

قبل الحديث عن الشاب الأموى الذى استطاع الفرار من (السفاح العباسى) ليصير بدوره سفاحاً أموياً فى الأندلس، لابد أولاً من الإشارة إلى أن البطل الذى قاد جيش العباسيين ودخل بهم إلى دمشق»أبومسلم الخراسانى «كان جزاؤه القتل على يد العباسيين أنفسهم، فقد قتله الخليفة أبوجعفر المنصور (أخو أبى العباس السفاح، ووريثه) سنة ١٣٧ هجرية.. مثلما كان مصير الأبطال الفاتحين للأندلس، على يد الأمويين، هو التجريد والتشريد لموسى بن نصير، والحجب والإخفاء التام لطارق بن زياد، والاغتيال وحَزُّ الرأس لعبدالعزيز بن موسى بن نصير!

وقد أشرنا فى المقالةالسابقة، إلى الطبيعة السلطوية التى تدعو الحكام والخلفاء والرؤساء إلى إطفاء (النجوم) التى تلمع فى دولتهم، خشية المزاحمة على العرش..

فما أنت أيها العرشْ.

أتُراك أبقى من أى فرشْ،

أو أنت أطهرْ؟

أم هى المخايلة،

ومُخاتلةُ المظهرْ ؟

وما ذاك الكرسىُّ الذى،

من حوله الدماءُ تُرشّ؟

أهو ذهبىٌّ حقاً،

أم هو طلاءٌ فوق قَشّ؟

أليس «كرسى» و«سكير«

مرسومان بالحروف ذاتها،

مع اختلاف الترتيب عند النقش؟

وما الذى يبقى من بعد صاحبه،

العملُ العادل والقول الفاضل،

أم السفكُ والسوطُ

والصوتُ الأجشّ؟

■ ■ ■

فى سنة ١٣٨ سنة هجرية، دخل الأندلسَ (عبدالرحمن الداخل)لأمير الأموى الملقَّب بصقر قريش، وهو الذى يستحق (فيما أرى) لقباً أكثر انطباقاً عليه، هو: السفاح الثانى.. قياساً على (السفاح)العباسى الأول أبى العباس.

وكان (الداخل) قد تجرَّع طيلة السنوات السابقة على دخوله الأندلس، مراراتٍ طافحةً، ثم ما لبث أن جرَّع مثلها للناس.

فقد فرَّ فى أول الأمر، وهو فى العشرين من عمره، من بلدته التى فتش فيها العباسيون السفَّاكون عن أى «أموى» فلجأ مع أخيه الأصغر إلى بلدة على نهر الفرات. فدهمهم العباسيون، فألقى الأخوان نفسيهما فى ماء النهر، وسبحا على أمل الوصول إلى الشاطئ المقابل، بينما العباسيون يدعونهما إلى العودة والعفو والنجاة. وانخدع الأخُ الأصغر، وأشفق على نفسه من عبور النهر، فعاد إلى الذين وعدوه بالحسنى، فلم يجد منهم إلا الذبح وحزَّ الرأس.. بينما أخوه «عبدالرحمن» ينظر من وسط النهر الهادر به.

وخرج» عبدالرحمن «من الشام والعراق، فارّاً، متخفياً، مملوءاً بالمرارة. فلجأ إلى أخواله (البربر) الساكنين بإفريقية، المسماة اليوم: تونس، فوجد العباسيين هناك يطاردون (فلول) الأمويين، ويقتلون مَنْ يمسكونه منهم. لكن» عبدالرحمن «نجا بعد مغامرات كثيرة، ولاحت له الأندلس مستقَراً آمناً، فأوفد إليها أحد أعوانه ليستميل أقاربه القدامى الذين سكنوا الأندلس من قبل انهيار دولة الأمويين.. ولما وجد منهم قبولاً، عبر إليهم وجمع حوله الرجال، وأسال الدماء من جديد.

كانت الجماعات العربية فى الأندلس تعيش فى ظل توابع الزلزال السياسى) انهيار الأمويين وترؤس العباسيين (وكانت بينهم منازعات متأججة ولمعان سيوف.. فدخل عبدالرحمن الداخل، فى قلب هذه المعمعة، وسَلَّ سيفه على كل من يعترضه.

■ ■ ■

قضى عبدالرحمن الداخل السنوات الأربع والثلاثين، الممتدة من دخوله الأندلس سنة ١٣٨ هجرية حتى وفاته سنة ١٧٢ ميلادية، فى حروب ونزاعات مسلَّحة وكَرٍّ وفرٍّ، وفى مؤامرات وإخماد ثورات وقتالٍ مرير، مع آل بيت النبوة (الفاطميين) ومع أتباع الخلفاء الجدد (العباسيين) ومع كل راغب فى الإمارة والحكم من العرب والبربر والمولَّدين والقوط والمسلمين والمسيحيين، فكانت حصيلة معاركه هناك: عشرات الآلاف من القتلى، ومئات الآلاف من الجرحى..

ولم يتوقف تدفق أنهار الدم، لإعلاء العرش، بوفاة السفاح الثانى «عبدالرحمن الداخل، صقر قريش» وإنما استمر فيضان الدم، فصار بحاراً، على يد أولاده وأحفاده.. فقد قتل حفيدُه «الحكم بن هشام بن عبدالرحمن» فى موقعة واحدة ثلاثمائة ألف مسيحى، وقتل من المسلمين المعارضين له بقرطبة، أربعين ألفاً (من بينهم أربعة آلاف من علماء الدين) وقتل من المسلمين المعارضين له بطليطلة، قرابة خمسة آلاف رجل.

ولجأ المهزومون والمهدَّدون بالهزيمة، من العرب والمسلمين (خصوصاً: الخوارج)إلى الاستعانة بالقوات الأجنبية، فجاءت إلى الأندلس قوات التحالف بين الإمبراطور الشهير (شارلمان) والبابا (هادريان) رأس الكنيسة فى أوروبا..

فسار إلى الأندلس جيشٌ جرار بقيادة شارلمان، آملاً فى ضمها إلى مملكته، وفى قطع شأفة المسلمين من هناك. لكن ما كان يتوقعه شارلمان من انضمام «الخوارج» إليه، لم يحدث، مع أنهم كانوا الدَّاعين له. وحدث بدلاً من ذلك، ما لم يتوقعه شارلمان، وهو ثورة «السكسون» عليه.. مما اضطره للرجوع بجيشه الجرار، الذى لحق به عند جبال البرنيه (شمال الأندلس، جنوب فرنسا) جيشُ المسلمين الذين قطعوا مؤخرة الجيش، وقتلوا الجنود، وسلبوا مغانم كثيرة.. وقد فعل المسلمون ذلك بالتعاون مع جماعات مسيحية كانت تعرف باسم (البشكنس)

والمؤرخون يستغربون من موقف «شارلمان» الذى لم يرجع للانتقام ممن أبادوا مؤخرة جيشه، وقنع بالفاجعة التى حلَّت به، واستمر فى سيره شمالاً حتى خرج من الأندلس.. فبقيت النواحى الأندلسية نهباً بين القوى المتعارضة والمتصارعة: العرب، البربر، المولَّدين، المسيحيين، المسلمين الموالين للعباسيين، المسلمين الموالين للفاطميين، كبار رجال القبائل الطامعين فى السلطة..

وتوالت الحروب، فخاض منها» عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالملك «المعروف بعبدالرحمن الثانى، وقائع عسكرية كثيرة، استمر فيها من بعده ابنه «محمد» الذى يقال إنه قتل فى موقعة واحدة، فقط، ثلاثمائة ألف إنسان.

■ ■ ■

وبينما الدولة العباسية فى المشرق، منهمكة فى ملاحقة أئمة آل البيت الذين خرجوا عليها ثائرين. والدولة الأموية (الثانية) التى قامت فى الأندلس، منهمكة فى حروب المنشقين والثائرين والطامعين فى العرش ومثيرى الفتنة الطائفية بين المسلمين والمسيحيين ..

بدت فى غمرة المشهد الدموى، ويا للعجب، بدايات البدائع الحضارية للدولتين: العباسية (فى العراق وعاصمتها بغداد) والأموية (فى الأندلس وعاصمتها قرطبة) ويوماً من بعد يوم، هدأت الحروب وجفت أنهار الدم التى سالت وتدفقت، وقامت منارات العلم والفن والفكر فى الأندلس، وفى بقية أنحاء العالم الإسلامي.

الأفق الأندلسى (٧/٧) البدائعُ الأندلسية

كنتُ قد اعتدت فى زمن التلمذة، أن أتردَّد بانتظام مع أقرانى على سينما (الهمبرا) بالإسكندرية، لمشاهدة الأفلام الهوليودية التى تعرض هذه السينما مزيداً منها كل أسبوع، فنهرب بذلك من سطوة الأفلام العربية الطافحة تفاهةً فى تلك الأيام، أعنى فى زمن الانفتاح المصرى والانفساح القيمى بعد كامب ديفيد.. وقد عرفتُ أيامها، أن عديداً من دور السينما والملاهى فى المدن العربية، كانت تحمل أيضاً اسم «الهمبرا»، لكننى لم أدرك أن هذا الاسم هو النطق الأوروبى، للكلمة العربية التى سُمِّى بها القصر العربى الشهير بالأندلس: الحمراء.

وفى المرة الأولى التى زرتُ فيها قصر الحمراء، بإسبانيا المعاصرة، كان معى العَلاَّمة الدكتور محمود على مكى (أطال الله عمره) الذى جلس عند البوابة الخارجية، وهو يقول لى إنه سينتظرنى هناك، لأنه حسبما قال: زار القصر عشرات المرات، ويحفظ أنحاءه شبراً شبراً.. استغربت كلامه، لكننى بعد الزيارة التى استغرقت ساعات، عرفتُ كم تكون هذه الجولة مجهدةً، وممتعةً فى الآن ذاته. وهذه المنطقة الفسيحة، تضم مع القصر (العربى/ الإسلامى) آثاراً أخرى ومبانى (قوطية/ مسيحية) ولكن شتَّان ما بين أناقة الأولى ورصانتها الزخرفية، وضخامة الأخرى وقبح طرازها المعمارى.

وقد ظننتُ يومها أن قصر الحمراء «الهمبرا» هو أجمل ما تم بناؤه بأيدى العرب والمسلمين فى هذه الأرض الأوروبية، ثم ظهر لى أن هذا القصر البديع الزاخر بالزخارف وهندسة (مضاعفة المنظر) عبر انعكاس المبانى على صفحة الماء بالأحواض الساحرة، هو محض واحد من البدائع الأندلسية الكثيرة فى ميدان البناء. وأن المبانى الأخرى (العربية/ الإسلامية) لا تقل عنه رونقاً وبهاءً، سواء الباقية منها إلى اليوم، أو التى اندثرت وحدَّثنا عنها المؤرِّخون.

■ ■ ■

سارت خُطى الحضارة والعمارة والإبداع فى الأندلس، متوازيةً مع دقات طبول الحرب وتدفق أنهار الدم هناك، ولكن بمعدَّل عكسى! فكلما كانت الممالك تستقر وتهدأ، كانت آيات الإبداع تتواتر وتزداد. والدليل على ذلك، والمثال عليه، نراه فى (مسجد قرطبة)، الذى بدأ بناءه مؤسسُ الدولة الأموية هناك، عبد الرحمن الداخل المعروف بصقر قريش (وهو السفَّاح الذى ذكرتُ بعض أخباره فى المقالة السابقة) فجعله على سبعة أبهاء، ثم زاد عليه بهوين آخرين، حفيدُه الحكم بن هشام الذى قتل فى موقعة واحدة ثلاثمائة ألف مسيحى، وقتل من المسلمين المعارضين له بقرطبة أربعين ألف إنسان (منهم أربعة آلاف من علماء الدين) ومن المسلمين المعارضين له بطليطلة «توليدو» قرابة خمسة آلاف.. ثم زاد عبدالرحمن بن الحكم (الذى بنى جامعَ وسور إشبيليَّة)

بهوين آخرين، ثم زاد المنصورُ بنُ أبى عامر ثمانيَة أبهاء، فصار مسجدُ قرطبة مع هذه الاتساعات آيةً من آياتِ الفنِّ الإسلامىِّ الخالدة.

ولم تقتصر عمائرُ الإسلام فى الأندلس، على المساجد البديعة التى لا تزال آثارُها الباقية تشهد بجلالِ القرونِ الخالية. وإنما ملأ المسلمون أرجاءَ الأندلسِ ببدائع العمائر: القصور، القناطر، أسوارِ المدن، النافورات. وبنوا مدناً كاملة (٤٤ مدينةً)، لَايزال بعضُها قائماً إلى اليوم، وبعضُها الآخرَ قد اندثر . ومما اندثر من مدن الإسلامِ هناك، مدينةُ «الزهراء» التى بناها «الناصرُ عبدُالرحمن بن محمد» فى اثنتى عَشْرةَ سنةً، بألف بَنَّاءٍ (مهندس) فى اليوم، مع كلِّ بَنَّاءٍ اثنا عشر عاملاً. وساق إليها أنهاراً، ونقب لها الجبل ..

يقول المؤرخ شمس الدين الذهبى فى كتابه (سير أعلام النبلاء) عن مدينة الناصر البائدة هذه: «كانت مُدوَّرَةً، وعِدَّة أبراجِها ثلاثمائة برج، وشرفاتها من حجرٍ واحد، وقسَّمها أثلاثاً: فالثُّلُث المسند إلى الجبل قصوره (محلّ سكناه) والثُّلُث الثانى دُورِ المماليك والخدم وكانوا اثنى عَشرَ ألفاً بمناطقِ الذهب يركبون لركوبه (يخرجون فى موكبه) والثُّلُث الثالث بساتينُ تحت القصور. وعمل مجلساً مُشرِفاً على البساتين، صَفَّحَ عُمُده بالذهب ورصَّعَه بالياقوت والزمرد واللؤلؤ، وفَرَشه بمنقوشِ الرخامِ، ووضع قُدَّامه بحيرةً مستديرة ملأها زئبقاً، فكان النور ينعكس منها إلى المجلسِ» .. (وهو تطبيق آخر لتقنية المضاعفة الهندسية للمكان، بانعكاس صورته على أحواض الماء أو الزئبق).

■■■

وفيما يخصُّ العلومَ والمعارفَ، اعتنى المسلمون فى الأندلس بالعلماء، حتى برع منهم كثيرون فى كلِّ المجالاتِ المعرفيَّة، وأسَّسوا المدارسَ وأوقفوا عليها الأوقافَ. ومن ثَمَّ، امتلأت الأندلس بالمخطوطاتِ العربيَّةِ من كلِّ فنٍّ، ومن كلِّ علمٍ وأدب، حتى إنَّ مكتباتِ قرطبة وحدَها، بلغت السبعين مكتبةً، عدا خزائن الكتب الخاصة ومكتبات المساجد.

ومن هنا، لا يمكن التأريخُ لجوانب الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة، فى الفترة الممتدة من القرن الثالث إلى العاشرِ الهجرى، دون الوقوف عند إسهامات الأندلسيين فى هذه الجوانب كافةً. ففى تاريخ الفلسفة الإسلاميَّةِ، تقابلنا فى الأندلس شوامخُ مثل: ابنِ باجة، ابنِ طفيل، ابنِ رشد. وفى تاريخ العلم العربىِّ، لا بد من التلبُّثِ طويلاً عند علماءَ أندلسيِّين مثل: ابنِ زُهر، ابنِ البيطار، موسى بن ميمون.. وضمن تاريخ التصوف الإسلامى، تلمع فى سماء الأندلس أسماءُ صوفيةٍ عاشوا بنواحى الأندلس أو وفدوا منها، مثل: ابنِ قَسِّى، ابن سبعين، ابن عربى.

ونظراً لضخامة هذا التراث الأندلسىِّ، تزخر المكتبةُ العربيَّةُ بموسوعاتٍ تؤرِّخ لعلماءِ الأندلس (والمغرب)، وفقاً لأزمنتهم أو نوع مشاركتهم فى صياغة العقلية العربيَّة الإسلامية على مَرِّ القرون. منها الكتب التاريخية (المطوَّلة) التالية:

قُضَاةُ قُرْطُبَةَ وعَلَمَاءُ إفريقيَّةَ، للقيروانىِّ (أبى عبدالله، محمد بن حارث بن أسد الخشنىِّ، المتوفَّى ٣٦١ هجريَّة) تاريخُ العلماءِ والرواةِ للعلم بالأندلس، لابن الفرضى (أبى الوليد، عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدى، المتوفَّى ٤٠٣ هجريَّة) جَذْوَةُ المقْتَبِس فى ذِكْرِ وُلاَةِ الأَنْدَلُسِ، للحميدى (أبى

عبدالله، محمد بن فتوح بن عب الله المتوفَّى ٤٨٨ هجريَّة) المغربُ فى أَخْبَارِ المغربِ، لعبدِالملك بن سعيد، (المتوفَّى ٥٦٢ هجريَّة) كتابُ الصِّلةِ، لابنِ بشكوال (أبى القاسم، خلف بن عبد الملك بن مسعود، المتوفَّى ٥٧٨ هجريَّة) بُغْيَةُ الملْتَمِسِ فى تَارِيخِ رِجَالِ أَهْلِ الأَنْدَلُسِ، للضَّبِّى (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، المتوفَّى ٥٩٩ هجريَّة) التَّكْمَلَةُ لِكتَابِ الصِّلَةِ، لابن الأبَّار (أبى عبدالله، محمد بن عبدالله بن أبى بكر القضاعى، المتوفَّى ٦٥٨ هجريَّة) نَفْحُ الطِّيبِ مِنْ غُصْنِ الأَنْدَلُسِ الرَّطِيبِ وذِكْرُ وَزِيرِهَا لِسَانِ الدِّين بنِ الخطيبِ، للمقَّرى (أحمد بن محمد التلمسانى، المتوفَّى ١٠٤١ هجريَّة).

ولم تقتصر الإسهاماتُ العلميَّة الأندلسيَّة، على السجل الحافلِ لعلمائهم المذكورين فى المصادر السابقة، ذلك أنَّ علماءَ أندلسيين فى الفروع كافةً، انتقلوا من الأندلسِ إلى مصر والشام، وصاروا يُحسبون على علماء المشرق - لا المغرب والأندلس - ومن ثَمَّ، خلت هذه المصادرُ الأندَلسيَّة من تراجمهم. فضلاً عن الأثرِ، الذى أحدثه الأندلسيُّون، فى مسار الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة، بل الإنسانيَّة .

■ ■ ■

ومع امتداد العطاءِ العلمىِّ الأندلسىِّ قروناً طوالاً، ومع الموقع الجغرافى الخاص (الواصل/ الفاصل) للأندلس، كانت للأفق الأندلسى تجليات مزدوجة، حيث سطعت الأنوار الحضاريَّة فى سماء الحضارتين العربيَّة الإسلاميَّة والأوروبيَّة، على السواء.. ولا يمكن الحديث بإسهابٍ عن الأثر الأندلسىِّ المزدوج، فهو من الاتساع والتعدُّد بحيث لايمكننا إلاَّ الإلماح إليه بهذه الإلماحات الموجزة. ولنبدأ بالأثر الأندلسى فى الثقافة والحضارة العربيَّة الإسلاميَّة .

ذكرنا قبل قليلٍ، أنَّ علماءَ أندلسيين وفدوا من الأندلس إلى قلب العالم الإسلامى، فكان لهم أعمقُ الأثر. منهم على سبيل المثال الشيخ الأكبر: محيى الدين بن عربى، المتوفَّى ٦٣٨ هجريَّة (١٢٤٠ ميلاديَّة) الذى استكمل تعليمه وبدأ حياته الروحيَّة بالأندلس، والتقى هناك بابن رشد. ثم تجلَّت أعماله الصوفية فى مصر والشام والحجاز، وهى الأعمال التى جعلت منه بحقٍّ: شيخ الصوفية الأكبر، وأكبر مؤلِّف صوفىٍّ فى تاريخ الإسلام، وأشهر صوفيَّةِ الإسلام على الإطلاق.

وعلى منوال ابن عربى، جاء من الأندلس الفيلسوف الصوفى العظيم: محمد بن عبدالحقِّ الملقَّبُ بابن سبعين (المتوفَّى ٦٦٩ هجريَّة = ١٢٧٠ ميلادية) وهو صاحب المعالجة الفلسفيَّة العميقة لقضايا الفكر الصوفى ذى النـزعة الإنسانية عاليةِ المستوى، وصاحب الرسالة البديعة المعروفة بعنوان «الكلامُ على المسائل الصِّقليَّة» وهى التى أجاب فيها عن الأسئلة الفلسفيَّة التى أرسلها فريدريك الثانى إمبراطور صِقليَّة لعلماء المسلمين فى المشرق والمغرب، وسخر فيها من الإمبراطور وأسئلته الفلسفية التقليدية، البائسة.. ولو كان المقام يسمح هنا، لذكرتُ القصة الطريفة لهذه (الأسئلة) والأسلوب البديع الذى رَدَّ به ابن سبعين عليها.

وعلى ذات المنوال السابق، وفَد من المغرب والأندلس إلى مصر، مؤسِّسو الطريقة الشاذليَّة: أبوالحسن الشاذلى (نسبة إلى «شاذُلة» مع أنه ليس منها!) وأبوالعباس المرسىُّ (نسبةً إلى مُرْسِيَةَ الأندلسيَّةِ) .. فصارت طريقتُهم بعد سنواتٍ، واحدةً من أوسع الطرق الصوفيَّة انتشاراً

بمصر والعالم الإسلامى .

وفى ميدان الفلسفة والطبِّ، يحتل موسى بنُ ميمون مكانةً خاصة، وكان قد وفد إلى مصر من الأندلس، وترقَّى فى المكانة العلميَّة والمهارة الطبيَّة، حتى صار طبيباً خاصاً لصلاح الدين الأيوبىِّ.. وقريبٌ منه ابنُ البيطار المالقىُّ، الذى يُعَدُّ أشهر عَشَّابٍ (صيدلانى) فى تاريخ الإسلام، وكان قد وفد هو الآخر من الأندلس إلى مصر والشام، وأقام هناك زمناً تعدَّدت فيه إسهاماتُه العلميَّة فى مجال الصيدلة، مثل كتابه الأشهر «المغنى فى الأدوية المفردة». الذى ظل المرجعَ الصيدلانىَّ الأولَ لزمنٍ طويل، وتُرجم إلى اللغات الأوروبيَّة منذ زمنٍ مبكِّر.

ومن علماءِ الأندلس، مَنْ وصلت أعمالُهم إلى أرجاءِ العالم الإسلامى وهم مُكُوثٌ فى الأندلس، فأثَّرت أعمالُهم فى مسار العلم أثراً كبيراً. منهم الجراح الأشهر: أبوالقاسم الزهراوىُّ الذى يُعَدُّ كتابُه «التصريفُ لمن عجز عن التأليف» أهمَّ مصدرٍ جراحىٍّ فى القرون الممتدة من الأول حتى السابع الهجرىِّ (القرن السابع إلى الثالث عشر الميلادى).. ومنهم المؤرِّخ الشهير: ابنُ جُلْجُل صاحبُ كتاب «طبقات الأطبَّاء» الذى يُعَدُّ أهم المصادر التاريخيَّة لترجمات نوابغ الأندلس فى الطبِّ والصيدلة.. ومنهم الفقيه الشهير، صاحبُ المذهب (الظاهرىِّ) فى الفقه: ابنُ حَزْمٍ الذى كتب فى الفقه وعلوم الدين كُتباً كثيرة، وكتب فى الحب: طوق الحمامة فى الأُلفة والأُلاَّف!

وبالإضافة إلى إسهامات العلماء، كان للأفقِ الأندلسىِّ تجليَّاتٌ فى سماء الأدب العربىِّ، الذى حفل بنوعٍ أدبىٍّ خاصٍ، هو إبداعٌ أندلسىٌّ خالصٌ: الموشَّحات. بل إن شعراءَ الأندلسِ ابتكروا بحوراً عروضيَّةً، غيرَ تلك البحورِ الستةَ عَشَرَ المعروفةِ فى الشعرِ العربىِّ، منها بحر (السلسلة)، الذى أبدع الأندلسيُّون على قاعدته أشعاراً وموشَّحاتٍ كثيرة.

وحتى فى الشعر العربىِّ التقليدىِّ، فهناك إبداعاتٌ أندلسيَّة لا يمكن لدارسِ الأدبِ العربىِّ أن يمرَّ عليها مرورَ الكرام. إذ لا بدَّ لمن يدرس الأدبَ العربىَّ، من الوقوف طويلاً أمام: ابن زيدون (صاحب القصيدة النونيَّة) وابن عبدون الإشبيلىِّ (صاحب قصيدة: الدهر يفجع بعد العين بالأثر) وابن فرح الإشبيلى (صاحب القصيدة الشهيرة فى أصول الحديث).

وبالطبع، فما هذه إلا إلماحاتٌ إلى النقوش الأندلسيَّة، فى نسيج الحضارة العربيَّةِ الإسلاميَّةِ .. وعلاوة على ذلك، تأتى مع الآثار الأندلسيَّة، الإسهامات المهمة للأندلس فى تطوير الحضارةِ الأوروبيَّةِ. وهذه بعضُ الإلماحاتِ إلى تلك الإسهامات:

كانت الأندلسُ واحدةً من أهمِّ (المعابر) التى انتقل منها العلم العربىُّ الإسلامىُّ إلى أوروبا فى فجر النهضة الحديثة (الرينسانس) ففى مدن الأندلس، وعلى يدِ جماعةٍ من التراجمةِ (اليهود خصوصاً) تمت ترجمةُ المتونِ العربيَّةِ إلى اللغة اللاتينيَّةِ، لتكونَ فى مطلع الرينسانس، أهمَّ المراجِعِ العلميَّةِ فى الجامعاتِ الأوروبيَّة .

وعلى ذِكْر التراجمة اليهود، تجدر الإشارة إلى أن المسلمين فى الأندلس، كانوا قد خلَّصوا اليهود من العنت الذى تعرضوا له على يد القوط، بل واستعان بهم المسلمون فى إدارة المدن الكبرى، حتى صار بعض اليهود مثل «حسداى بن شبروط»، وزيراً .. ونبغ من يهود الأندلس كثيرون:

يوسف بن حسداى، ابن جبيرول، موسى بن ميمون (موسى الثانى، صاحب: دلالة الحائرين).

وقام اليهود الأندلسيون بترجمة التراث العربى إلى اللغة اللاتينية، واشتهر منهم جماعة مترجمين، مثل: يوسف قمحى، إبراهام بن حسداى، يهوذا الحريرى.. كما قام المسيحيون، أيضاً، بترجمة عددٍ وافر من النصوص العربيَّة التى ما لبثت أن انسربت إلى اللغات الأوروبيَّة المختلفة.

ومن الأندلس إلى أوروبا، عبرت مؤلفات أرسطو محمولةً على أجنحة ابن رشد، وبحسب شروحاته على كتب أرسطو، التى كان الأصل اليونانى لها قد فُقد منذ زمن طويل، ولم تعد بأيدى الناس إلا الترجمةُ العربيَّة لها. وقد أثَّر ابن رشد أثراً بارزاً فى الفكر الأوروبى من خلال تلاميذه اللاتين الذين تبنَّوْا أفكاره ونشروها (واضطُهِدوا بسببها) من أوروبا كلها.. ومن العجيب، أن الفيلسوف العربى ابن رشد (المتوفَّى ٥٩٥ هجريَّة = ١١٩٩ ميلاديَّة) قد أثَّرت أعماله فى أوروبا، بأكثر مما أثَّرت فى الثقافة العربيَّة خلال القرون التالية له.

ولم تؤِّثر الأندلس فى أوروبا علمياً وفلسفياً فحسب، وإنما تردَّد الصَّدى الأندلسى فى سماوات الأدب الأوروبى، مع انتقال الموشَّحات الأندلسيَّة من إسبانيا إلى فرنسا، ومن ثم إلى أوروبا كلها، مع الشعراء الجوالين الذين عُرفوا باسم: التروبادور .. كما تردَّد الصَّدى الأدبى مع احتذاء الأوروبيين لقصة حَىّ بن يقظان التى كتبها بالعربية ابن سينا وابن طفيل والسُّهروردى وابن النفيس، ثم ترجمت إلى اللغات الأوروبيَّة، فظهرت ثانيةً فى قصص أوروبية شهيرة مثل: روبنسون كروزو .

وعن طريق الأندلس، عرف الأدب الغربى (ألف ليلة وليلة) التى تُرجِمت إلى اللغات الأوروبيَّة عِدَّةَ ترجماتٍ، وأثَّرت عِدَّةَ تأثيرات لا تزال ممتدةً إلى اليوم، مرفرفةً بين جنبات أدب اللغة الإسبانية المعروف بالواقعية السحريَّة، حيث تتجلَّى (ألف ليلة) إلى اليوم فى نصوص فى أعمال الروائيين المعاصرين الذين يكتبون بالإسبانية والبرتغالية، من أمثال: بورخيس، جابرييل جارثيا ماركيز، أمادو.. أمريكا اللاتينية: خورخى لويس بورخيس .

وشيئاً فشيئاً، صارت الأندلس معيناً ينهل منه الأوروبيون العلم العربى، مع اهتمام مراكز علميَّة متخصصة.. ففى «طليطلة» أنشأ رايموندو الأول رئيس الأساقفة، سنة ١١٣٠ ميلاديَّة (٥٢٤ هجريَّة) قسماً خاصاً للمترجمين من العربيَّة، فتُرجمت أعمال كبرى، مثل: مؤلفات أرسطو بشروح الكندى والفارابى وابن سينا، مؤلفات أبقراط وأقليدس وبطليموس وجالينوس بشروحها العربيَّة التى لا تكاد تقع تحت الحصر.

■ ■ ■

وبعد حينٍ من الدهر، آذنت شمس الأندلس بالمغيب. فبدأ (الغروب) الأندلسى مع عصر ملوك الطوائف الذين حكموا بقاع الدولة الإسلامية هناك، واقتتلوا فيما بينهم طمعاً فى وراثة الدولة الأمويَّة المتشظية. وقد امتد نزاعهم فى أول الأمر، حتى كاد يُذهبُ بريحهم وريح المسلمين فى الأندلس. لولا أَنْ عبر إليهم سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين من ساحل المغَرب سنة ٤٧٩ هجريَّة (١٠٨٦ ميلاديَّة) وأحيا الوجودَ الإسلامىَّ من جديد، وأقام دولته التى ورثها بعد ضعف المرابطين ملوكُ الموحِّدين، الذين تغلَّبوا على المرابطين فى عِدَّةِ مواقعَ عسكريَّةٍ بمدن الساحل

الأفريقى (من سنة ١١٥٢ إلى سنة ١١٦٠ ميلادية) ثم عبروا إلى الأندلس وورثوا دولة الإسلام هناك، بعد انتصارهم على ألفونسو الثامن فى موقعة الأرك، سنة ٥٩١ هجريَّة (١١٩٥ ميلاديَّة).

وبعدما توالت دولُ الإسلام على حكم بقاع الأندلس، أَفِلَتْ شمسُ العرب المسلمين هناك، وضعف الـحُكَّام وتفرَّقت بهم السُّبُلُ.. وما إن تزوَّجَ الملك فردينـاندو الخامس بالملكة إيزابيلا واتحدا ضد المسلمين، حتى أخرجوا العربَ من الأندلس، وكان خروج الإسلام من هناك، خاتمةَ قرونٍ حافلةٍ بوقائع الزمان، وجدليَّةِ النصر والهزيمة. ففى سنة ١٤٩٢ ميلاديَّة، سقطت «غرناطة» آَخر معقل للمسلمين، فى يد فردنياندو ملك قشتالة (وإيزابيلا)، بعدما تخلَّف المماليكُ فى مصر والعثمانيون فى البلقان والحفصيون فى تونس، عن إغاثة غرناطة.. وسدُّوا آذانهم عن استغاثاتها الأخيرة..

وخرج آخر الحكام المسلمين (أبو عبدالله الصغير) من آخر مدينة مسلمة فى الأندلس (غرناطة) سنة ٨٩٧ هجريَّة = ١٤٩٢ ميلاديَّة .. وعند صخرة مشرفة على غرناطة، بكى طويلاً، ثم مضى بعدما تنهَّد تلك التنهيدة الحرَّى التى عُرفت فى التاريخ باسم: زفرة العربىِّ الأخيرة.

■■■

تم بحمد الله